نور

تأليف:

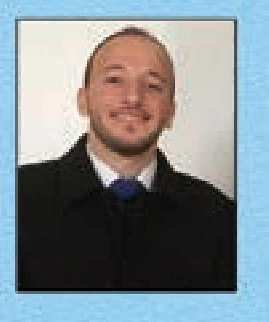
مهند محمد عميرة

نور

تأليف: مهند محمد عميرة

فتحت عيني عليه. نائم بعمق نومة الخالي من أي هم. هل هو مرتاح حقا؟ ما هي مشاكله؟ ماذا يحب؟ وماذا يكره؟ أعرف أنه يحب أشياء معينة غريبة بالنسبة إلي. لماذا يحبها؟ لديه أسبابه بالتأكيد. كنت أحس نحوه كأن أحدنا فضائي من كوكب آخر. هل يحس هو بذلك نحوي أيضا؟ هل أنا بالنسبة إليه شخص غريب يتصرف بطريقة غير مفهومة؟

إذا كان لا يفهمني أيضا فمن منا على حق؟ هو يعيش الحياة كما يجب أن تكون أم أنا؟ أنا أستطيع التواصل مع الناس. لكن هل العلاقات الاجتماعية هي معيار الفصل في هذا الأمر؟ ما هو النجاح؟ وما هي الحياة؟ الإنسان كائن اجتماعي؛ قالوا لنا ذلك، وكبرنا عليه. لو نزعنا هذه المسلمة من عقلنا الباطن. فقد يكون أسلوب نور في الحياة هو الصحيح. هل أحتاج أن أبني تصورا جديدا حول مسألة التواصل الإنساني؟ تناولت حبة "سيتالوبرام" ونهضت.



مهند محمد عميرة،

كاتب، وأخصائي علاج وظيفي أردني.

نشر مع دار المعارف العديد من الكتب

في علم اجتماع الأدب.





مهند محمد عميرة
Mohannad Mohammad Amireh

اسم الكتاب: نـــــور
اسم المؤلف: مهند محمد عميرة
تصميم الغلاف: رهف ياسر أبو غوش
الاخراج الفنى: محمود العزب
رقـم الإيـداع: 31156 / 2024
الترقيم الدولى: 0 - 9525 - 02 - 977 - 978 ISBN
طبع بمطابع دار المعارف

إهـداء

إلى كل مَن يعيش في عالمه الخاص
يراقب اقتحام الآخرين عزلته بلا صبر
ويسأل – بينه وبين نفسه – بحسرة: أفضول هذا أم اهتمام؟
إلى كل أم وأب خاضوا التجربة وحدهم
وواجهوا المجتمع الفضولي
كالربان يقود سفينته في بحر عاصف
إلى كل الأخصائيين في هذا المجال
مصابيح الأمل وينابيع الرحمة

مقدمة

ذات مرة، في إحدى ليالي المعادي الساحرة؛ قابلت صديقًا لي على المقهى. جاء ومعه رفيقه الذي لا أعرفه. تبادلنا الأحاديث الودية، وتطرقنا - كما جرت العادة - إلى الحديث عن الرواية والشعر. ثم سألني الرجل الثالث عما بدا أنه جاء إلى المعادي لأجله: التوحد. سألني لأنه عرف أنني أعمل في مجال تأهيل الأطفال المشخصين باضطراب طيف التوحد منذ أكثر من خمسة عشر عامًا. ولكل سؤال الكثير من الإجابات، خصوصًا إذا كان الموضوع شائكًا كهذا، تختلف الإجابة باختلاف صفة السائل. ظننت في البداية أنه يسأل بصفته مقدم رعاية، لكنه صحح لي المعلومة حين قال إنه يفكر في كتابة رواية عن مراهق مشخص بالتوحد. تعجبت لأمره، إذ هل تكفي جلسة على مقهى للإحاطة بموضوع كهذا! بالتأكيد لا، فقارئ الرواية - حتى وإن أدرك أنها ليست مرجعًا علميًّا - تعلق في ذهنه صورة معينة عن موضوعها، لذلك ينبغي على الراوي أن يكون أكثر أمانة واجتهادًا من ذلك الزائر اللطيف. منذ تلك الجلسة افترضت أن الأدب يعاني من قصور في التعامل مع هذا الشأن، فصُنّاع النصوص ليسوا متخصصين ولا مُلمّين بالجوانب الطبية أو التأهيلية أو التربوية. وحتى لا أصدر حكمًا سريعًا، قررت مطالعة بعض الروايات التي تعالج موضوع التوحد، وسرعان ما أُثبِتَتْ فرضيتي!

وسّعت نطاق بحثي، اتجهت إلى السينما فلم أجدها أحسن حالًا من الأدب! بسهولة أستطيع - أنا أو أي مختص آخر - أن أعرف أن من قُدّموا على أنهم أبطال يعانون من اضطراب التوحد ليسوا كذلك أبدًا، فضلًا عن أن الأبعاد الدرامية التي تتمحور حولها الأعمال المطروحة أشبه بالخيال، لا تنم إلا عن جهل بماهية التوحد وقدراته.

بعد تلك الزيارة، مررت بموقفين مشابهَين، قرّرت بعدهما أن أبدأ كتابة هذه الرواية. الأول حين حضرتْ إحدى الممثلات - بصحبة السيناريست الخاص بها - إلى مركز التأهيل الذي أعمل فيه. أرادت أن ترى الأطفال لأنها نوت القيام بدور في مسلسل لفتاة مشخصة بالتوحد. أما الموقف الثاني فكان عندما ألقى أحد الشعراء على مسامعي قصيدة يصف فيها سلوكًا لطفل مشخص باضطراب طيف التوحد، يومها نعته «بالمجنون!» قصيدته ألقت أمامي سلسلة من المشاكل الأخرى في تناول موضوع التوحد - إلى جانب القصور العلمي - كالمشكلة الأخلاقية والمشكلة الاجتماعية.

قد لا ألوم على الناس استسهالهم في تناول قضايا شائكة، فهي طبيعة الإنسان! لكنني أشفق على القارئ المسكين - الذي ربما يكون أبًا أو أمًا، أو مختصًا في بداية حياته المهنية، مطلعًا عاديًا - من معلومات مغلوطة، أو تصور خاطيء يبنيه حول التوحد، وأنا أعلم أن هذا ربما يكلفه سنينَ مضنية في تصحيحه. لأجل هذا أكتب السطور القادمة.

شكر وعرفان

أتوجـه بالشـكر إلى كل مـن الأخصائيـين؛ الأسـتاذة نـدى سـيد، والأسـتاذ جمـال مجدي، والأسـتاذ دهـب حمـدي، والأسـتاذ أحمد نور الدين، والدكتور حسـين سنجك لما قدموه من دعم أو معلومات طبية. والشكر موصول للأستاذين إسلام حمادة وأنس صادق، على نصائحهما ومراجعاتهما وإرشـاداتهما فيما يخـص تقنية الروايـة وعناصرها ولغتها. وينبغي عليّ شـكر الدكتورة داليا سليمان على توضيحها للآلية التي يتم بها تشخيص الأطفال باضطراب طيف التوحد. كما أشعر بالامتنان تجاه الدكتـورة فاطمة عمر، لما قدمته لي من معلومات قيمة عن شروط دمج الأطفال المشخصين باضطراب طيف التوحد في المدارس، وأوضاعهم هنـاك. ووجـب الشـكر لريتشـيل كوليغـان Rachel Colligan التـي كسرت بحسـن إدارتهـا الفجوة بين ما نقرؤه في الكتـب وما نراه مطبقًا على أرض الواقع. وأشكر نردين مسعود على ما قدمته لي من معلومات خاصة بالسلوك استفدت منها أثناء كتابة هذه الرواية. شكرًا من أعماق قلبـي لكل أخصائـي، أو ولي أمر، أو طفل مشـخص باضطراب طيف التوحد، تعلمت منه شيئًا في هذا المجال.

ولا أنسـى شـكر زوجتـي سـلمى غنيم، التـي لولاها مـا تمت هذه الرواية.

إنني مدين لكل من ساهم بحب في إنجاز هذا العمل!

(١)

في تلـك الليلـة ذبلت عيـوني تلاحقه من ركـن إلى آخـر في الغرفة. «نـم يا حبيبي، علـي أن أصحو باكرًا، غدًا سـنذهب إلى المعـادي لمقابلة الدكتورة سـناء» من التجمع الخامس إلى المعادي مشوار طويل. نظرت إليـه أحدث نفـسي: «ألا يتعب من الحركة! يقطع في غرفته - كل يوم - مسـافة أكـبر مـن تلك التـي يقطعها لاعب كـرة قدم في موسـم كامل! حلقـه لا يؤلمه من الأصوات الخارجة منه بـلا توقف: با، ميبي، رورو، هل يريد أن يقول لي شـيئا؟» ركض صوتي إليه بأسـى: «قل لي، أو حتى لغـيري أنـا راضيـة، انظر في عينـي، لا تتجاهلنـي، متى سـأعرف ماذا تريد؟» تركته على حاله، يروح ويجيء في الغرفة، لا أعرف لماذا تشـعره الحركـة بالسـعادة، حينها كنت قد يئسـت من معرفة السـبب، فأقنعت نفسي أنهـا هوايته، احتلت عليهـا حتى اطمأنتْ، توقفتْ عن الأسـئلة واكتفتْ بكونه سـعيدًا. رفعت كل الملابـس إلى داخل الدولاب، أعلم أنـه يرغب في الوصول إليها لكي يضعها في فمـه ويمضغها. رغم أنني أصبحت متأكدة أنه في أمان، ولسـت قلقة عليه؛ لكنني لا أسـتطيع أن أتركـه وأنام قبـل أن أراه في سريره. إنها الثالثة فجـرًا، هل ألغي ميعادنا في الغـد؟ لا أسـتطيع، الدكتورة جدولها مزدحم ولـن نجد ميعادًا آخر قريب. يا رب ساعدني!

***

صحوت على الصوت المزعج؛ «تررررن، ترررن، تررررن.» أصبحت الساعة السابعة، فجأة كأنني لم أنم. «أف، حسنًا سأنهض.» قلتها كأنني أوبخ المنبه المسكين. استيقظت ساخطة أريد المزيد من النوم، خمس دقائق أخرى فقط تنفصل فيها روحي عن العالم الحقيقي، ما أجملها راحة! النوم نعمة لا يعرفها إلا من عانى قلتها، الحمد لله!

فتحت عيني عليه، نائم بعمق نومة الخالي من أي هم، هل هو مرتاح حقًا؟ ما هي مشاكله؟ ماذا يحب؟ وماذا يكره؟ أعرف أنه يحب أشياء معينة غريبة -بالنسبة إلي، لماذا يحبها؟ لديه أسبابه بالتأكيد. كنت أحس نحوه كأن أحدنا فضائي من كوكب آخر، هل يحس هو بذلك نحوي أيضًا؟ هل أنا بالنسبة إليه شخص غريب يتصرف بطريقة غير مفهومة؟ إذا كان لا يفهمني أيضًا فمن منا على حق؟ هو يعيش الحياة كما يجب أن تكون أم أنا؟ أنا أستطيع التواصل مع الناس، لكن هل العلاقات الاجتماعية هي معيار الفصل في هذا الأمر؟ ما هو النجاح؟ وما هي الحياة؟ الإنسان كائن اجتماعي! قالوا لنا ذلك، وكبرنا عليه، لو نزعنا هذه المسلمة من عقلنا الباطن، فقد يكون أسلوب نور في الحياة هو الصحيح، هل أحتاج أن أبني تصورًا جديدًا حول مسألة التواصل الإنساني؟ تناولت حبة «سيتالوبرام» ونهضت.

قبل خمس سنوات، كنت أذهب إلى «أيكيا» كل يوم مع أبيه لنجهز غرفته، تجادلنا حول لون الستارة، وارتفاع السرير، وشكل المشاية! أذكر أنني في أحد الأيام ظللت ما يقارب الساعة هناك أدقق في الرسوم

على المناشـف لأختار منها ما يناسـبه، ليتني انصعت لأبيه حين قال لي: «هاتيهـا كلها، واختـاري في البيت، الوقت أموال يـا ندى.» فقد تركها نـور وترك الغرفـة كلها وجاء ينام بجانبي. لم يكـن ذنبه، أنا عودته على التواجـد هنـا ليبقى أمام عينـي، كنت خائفة عليه، أحـس بالخطر حين يصـدم نفسـه متعمـدًا بخشـب السريـر، أو يحبـو باحثًـا عـن الألعاب ليضربهـا ببعضها أو بالحائط، ثـم يضع في فمه ما تكسر منها. قررت أن أبقيه أمام عيني طوال الوقت.

اغتسلت، وارتديت ملابسي، ثم أيقظته.

***

اعتـاد نـور أن يرفرف بيديه ويبتسـم – دون أن يُشـعر أحدًا – حين يخطـف نظـرة إلى حذائه وملابسـه، يعلم أنهـا مسـتلزمات الخروج. في ذلـك الصباح هز يديه قليلًا وسـارع بقدميه نحوي. «تعال لأحضنك، أعـرف أنك تحب حضن أبيك أكثر، ليس أبوك بأحن مني عليك، لكنه يعتـصرك بقـوة حـين يضمك وأنت تحـب ذلـك، ليتني أعـرف كل ما تحـب لأجلبه إليك فـورًا» ألا يوجد أحد في الدنيـا يقول لي ماذا يرضيه ومـاذا يزعجه! «آه، ليس الآن، بدلت حفاظتك منذ قليل. نور، إلى أين تسـحبني من يدي؟ غرفتك! ماذا تريد مـن غرفتك الآن؟» الطائرات، لهفتـي على الذهاب إلى الدكتورة سـناء أنسـتني أنه لـن يخرج من البيت مرتاحًا إلا إذا جلبت طائراته معه! هي واحدة من الأشـياء التي يحبها، ولا أعرف لها سببًا.

قبـل ذلك اليوم بحوالي أربع سـنوات كان نور رضيعًا، بالكاد تعلم أن يحرك رأسه، لففته في بطانيته وصعدت به إلى الطائرة، أبوه كان ذاهبًا إلى إيطاليـا في رحلـة عمـل، وأصررت أن نذهب معه لعلنـا ننال بعضًا مـن الترفيه. لا أسـتطيع أن أفـوّت زيـارة إلى «بياتزا ناڤونـا»، كأي فتاة رومانسـية، يأسرني أن ألتقط الصور على شـاطئ «سـينغيتا ميراكل» أو على طاولات مطعم «ديتيرامبو»، ثم أريها لصديقاتي، وأستشف الانبهار وبعض الحسـد من عيونهن. ما أضيق أفقي حينها! الرحلة كانت صعبة خصوصًـا فوق البحر، الطائرة تترنح يمينًا ويسـارًا، ومن حين إلى آخر تبـدو كأنها تصطـدم بشيء قوي سـيقلبها، أو يشـطرها نصفين، الناس تـصرخ وتدعو الله، ولا تلتفت إلى ابتسـامة المضيفة المطمْئنة ولا صوتها الرقيق الذي يشبه صوت طالبة في الثانوية: «يرجى ربط أحزمة الأمان، لا داعـي للقلق، نمـر الآن على مطبات هوائية شـديدة لكنهـا عادية.» نـور هـو الوحيد الـذي كان يقهقه بصوت عالٍ، لـو كان يعرف الكلام والحركة لذهب إلى الطيار ليطلب منه المزيد من هذا الرعب! كانت هذه المـرة الوحيدة -على ما أذكر- التي أسـمعه يضحـك فيها بهذه الطريقة الهسـتيرية. لمحتـه عندما نزلنا ينظـر إلى الطائرة بحب وانتشـاء كما ينظر السكير إلى زجاجة الخمر الأولى! لم يمل من توجيه رأسه نحوها ببطء، شيء مـا - لا أعرفـه - شـد عضـلات رأسـه الضعيفة نحوهـا! بعدها بعامين زرنا أحد مولات القاهرة، فجأة أخذ يصرخ ويبكي ويشدني من يدي إلى الخلف، ذهبت معه إلى حيث لا أعرف، مشـيت كالبلهاء حتى

أوقفني أمام ڤاترينة محل الألعاب، سعدت لأنه يرغب باقتناء لعبة رغم علمي أنه لن يلعب بها كما ينبغي. لا أقصد الإساءة له أبدًا، لكنه يرتب الألعـاب في صفوف وينظر إليها طويلًا، لا يركبها أو يجمعها كما يجب، ويرفـض أي توجيه منـي في ذلك، لـه طريقته الخاصة باللعـب. اللعبة التي أعجبته في محل الألعاب طائرة، رأسه الجميل احتفظ بصورتها منذ تلك الرحلة. اشـترينا كل الطائرات من المحل وخرجنا، وجمعنا بعدها طائـرات أخرى من أماكن كثيرة، لدينا طائرات أكثر من تلك الموجودة في مطـار القاهـرة الدولي! قلـت حينها في نفسي: «العب بها كما تشـاء يا حبيبي، المهم عندي أنك وجدت ما تحبه».

أخذته من يده: «هيا يا نور، تأخرنا على موعدنا».

***

ليت جوانب الحياة كلها نعيم ورفاهية مثل سيارتي هذه: X6 موديل ٢٠١٨. اشـتريتها قبـل ولادة نور بشـهور قليلة، أمي قالـت لي حينها: «عيون الناس لا ترحم، تتحسـدي!» أكمل نور السنة الثانية من عمره، طـوال ذلك الوقت ونحن نشـعر أنه لا ينظر إلينـا ولا يبادلنا الاهتمام، ولا يصدر مقاطع صوتية كالأولاد في سنه. انتبهتْ أمي لذلك بسهولة، النسـاء الكبيرات يحفظن تطور الأطفال بالفطرة والتجربة. ردّدتْ على مسامعي كثيرًا: «ابنك ماله يا ندى؟ كله من السيارة، شغلي سورة البقرة في البيت.» كنت أسمع كلامها وأنا منزعجة، وأبقى بعدها متوترة أفكر فيه. خشـيت أن يؤثر على نور بشـكل سـلبي. «لا تغضـب من جدتك

يا حبيبي، هي تحبك لكن بطريقتها، لكل منا أسلوبه الخاص، المهم أننا لم نتعامل معك على أنك غضب من الله أو حسد، أنت نعمةٌ يا حبيبي»

قررنا الذهاب إلى الدكتورة سناء لأول مرة. نصحنا بها طبيب أطفال كنا قد زرناه قبل زيارتنا الثانية هذه بسنتين. يومها دخلت عيادته:

– ما المشكلة يا مدام؟

– ابني يا دكتور، عمره اقترب على الثلاث سنوات، وإلى الآن لا يتكلم أبدًا، ولا ينظر في عيني.

تنهدت مستدركة:

– ولا في عين أحد، يتجاهل الجميع كأنهم غير موجودين، ولا يلعب مع أبيه أو معي.

حكيت شكوتي للطبيب وأنا أتوقع أن يوصي بفحوصات معينة، أو صور أشعة، كما يفعل أي طبيب. وقتها كنت مديرة بنك، توقعاتي محدودة بمعرفتي الضئيلة عن الأطفال وأمورهم الصحية. لم يوصِ الدكتور بشيء مما جال في خاطري، اكتفى بجملة واحدة فقط:

– اذهبي إلى الدكتورة سناء عادل، أخصائية طب الأطفال التطوري، عيادتها في المعادي.

خرجت من عند الطبيب قلقة، ابتسامته المصطنعة زادت توتري، وأشعرتني لأول مرة أن المشكلة كبيرة في الوقت الذي كنت أصّبر نفسي فيه بأقوال كثيرة: «مهارات الأطفال قد تتأخر عن أعمارهم المفترضة»، «الأسباب البسيطة تصنع مشاكل تبدو كبيرة»، «ويكيبيديا لا تعرف

كل شيء، هـي ليسـت إلا صفحـة للهواة، لا ينبغي عـلي أن أثق بها تمام الثقة» ثم أنغمس في عملي فأتوه بين الأرقام والأسـماء، وأجد ما يلهيني عن نور. هذه الزيارة صفعتني وأيقظتني من سـباتي، رجعت إلى البيت أبكي، وأخذت أتصل على خالد حتى أجاب بعد عدة محاولات:

- الموضوع بسيط، سأكلمك لاحقًا.

صرخت:

- لا، يجـب أن نعـرف بالضبط ما يعاني منه نور، وأنت سـتأتي معي إلى الدكتورة سناء غدًا.

صمـت خالد لحظات، لأول مرة يسـمع صراخي ونشـيجي، قال: «طيـب»، وأنهى المكالمة، وأنا سـهرت ليلتي أبحث عـلى الإنترنت عن الطـب التطـوري ومشـاكل الأطفـال لعلي أفهـم أي شيء حـول تلك التوصية المريبة. ذهبنا في اليوم التالي إلى عيادة الدكتورة سـناء أول مرة. في ذلك اليوم - ونحن ذاهبون إليها للمرة الثانية - كنت أسـأل نفسي: «هـل سـيذكرها نور كما تذكّر شـكل الطائرة؟» لا أظـن ذلك، في ذلك اليوم أنا من تأثرت وبكيت وانهرت، بالنسبة إليه كان يومًا عاديًّا جدًّا!

دخلـت العيـادة أول مـرة، إذا صـح أن أسـميها عيـادة! فقد كانت في مخيلتـي مكتبًـا وفيـه سرير وسـاعات وبالطـو وإبر وأدويـة، لكنني وجدتهـا غرفة كبـيرة مبهجة، جدرانهـا ملونة وعليها رسـومات ميكي ماوس وسبونج بوب وشخصيات أخرى لا أعرفها. تغير عالم الرسوم المتحركة عما كان عليه قبل عشرين عامًا عندما كنت طفلة! غرفتها مليئة

بالألعـاب إلى درجـة كفيلة أن تجذب أي طفل ليتـوه فيها ما لا يقل عن ساعتين. سلمت على الدكتورة ودخلت مباشرة في الموضوع:

- لدينا بعض الاستفسارات تخص نور ابني، قلناها للدكتور محمود العراقي، فأرسلنا إليكِ.

- خير إن شاء الله. ما هي الاستفسارات؟

- نور تأخر في الكلام، وغير مهتم باللعب مع أحد.

كانت الدكتورة تكلمني وتراقبه، عيونها تلاحقه وهو يجمع دبابيس البولينجِ البلاستيكية الملونة، ويرتبها على حافة الشباك، ثم يضربها بيده ضاحـكًا ليسـقطها، ويركض نحو الدولاب يفتحـه وينظر بداخله، ثم يتركـه مفتوحًا، ويرجع إلى دبابيس البولينـج يعاود فيها الكرّة، يركض مـن هنا إلى هناك، يثير فضوله كل شيء ولا يعجبه أكثر من ثوانٍ، يجربه ويمـضي إلى غـيره. قلـب الغرفـة رأسًـا على عقـب كأن عشريـن طفلًا يمرحون فيها منذ سـاعات. وددت حينها لو أنني قد درسـت تخصصًا جامعيًا يعنى بالطفولة وأمورها لأفهم ما يدور في رأس الدكتورة سـناء وهـي تكتفي بمراقبته مراقبة العارف المجرب وتدوين ملاحظاتها. بعد نصف سـاعة أخرجتْ من الدرج أمامها قلمًا وملفًا أزرق مكتوب عليه CARS-2 ST. ثم عدلت كرسيها لتكلمني وهي تنظر إلي لأول مرة منذ جلسنا:

- هل يتجنب نور النظر في عيونكم؟

- نعم، حتى في أجسادنا، أحس حين ينظر إلي أنّه يطالع شيئًا خلفي، كأنني كتلة من زجاج شفاف غير مرئي.

– عند ذهابكم إلى مكان عام – لنقل النادي مثلًا – ماذا يفعل؟

– يفعل أشـياء بسـيطة وحده، كالمشي بلا معنى، أو محاولة الزحلقة على الزحليقة، هي ليسـت محاولة في الحقيقـة فهو لا يصعد للأعلى، بل يقف أسـفلها واضعًا يده عليها وعيونه ترقب أعلاها. في أوقات كثيرة لا تعجبـه أي لعبة فيسـلي نفسـه بالرفرفـة. في السـابق كان يدور حول نفسـه. أحيانًا يضع قدمه أو يده في حمام السباحة، أحس أنه يبقيها لفترة أطـول إذا أحس أن الماء بارد أو سـاخن، لا يعجبـه الماء الفاتر. مرة اتجه نحو أطفال يلعبون الكرة، أخذها منهم وأخذ يلفها ويضحك.

– هـل يتضايق نـور إذا حاولتم إجباره على التواصـل معكم أو مع أي أحد؟

– نعـم، يبـدو على وجهه أنه يتوتر، يحيد برأسـه جانبًـا، ثم ينتهز أية فرصة للذهاب إلى مكان لا يتواجد فيه أحد.

– هل يستطيع نور تقليد السلوكيات البسيطة مثل التصفيق؟

– لا أظن.

– قلتِ إنه يرفرف بيديه، إذا رفرف أحد أمامه هل يقلده؟

– قـد يرفـرف معه، لكن لا أظنه تقليدًا، أقصد لا نقول له افعل كذا فيفعـل، بـل يرى أحدنـا يرفرف فيبدو أنـه ذكّره بحركـة يحبها ويعرف كيف يقوم بها فيفعلها، وحين يقوم بذلك لا ينظر لمن يرفرف معه.

– والأصوات البسيطة، هل يقلدها؟

– أبدًا، لا أذكر أنها حصلت ولو مرة واحدة.

- هل يُظهر نور أحيانًا مشاعر غير مناسبة في وقتها؟ بمعنى أن يكون جالسًا فيضحك أو يبكي دون أن يحصل شيء أمامه يدفعه لذلك؟

تنهدت بعد أن استكملتْ سؤالها، تذكرتُ مرة في النادي عندما وقعتْ طفلة لا يتجاوز عمرها الخمس سنوات، وركضتْ تصرخ نحو أمها، صوتها كان عاليًا جدًا، سمعها نور، وذهب ناحيتها يقهقه. شعرت بالحرج من تصرفه، مَن يعلم أنه طفل لديه تحديات من نوع خاص! حتى أنا لم أعرف -حينها- سببًا لهذا الضحك. توجهت نحوه لأبعده عن المكان. لم أذكر الموقف أمام الدكتورة، أحسست أن الإجابة المباشرة تكفيها:

- نعم قد يضحك أحيانًا في أوقات غير مناسبة، وربما ينظر إلى السقف ويضحك. بالنسبة للبكاء فهو كثيرًا ما يحدث، لكن أظن أنه يريد شيئًا فيعبر بالبكاء، كأن يكون جائعًا مثلًا.

- تحدّثنا عن الرفرفة، بخلافها هل يكرّر نور بعض الحركات التي تبدو غير مألوفة؟

- لا أذكر في الحقيقة.

قلتها وأنا سارحة في خيالي أحاول أن أتذكر شيئًا من هذا القبيل، لم تنقضِ ثوانٍ معدودة حتى استدركت:

- نعم، يحرك رأسه للأعلى كأنه يضربه بالهواء، ثلاث أو أربع مرات متتالية. لكن هذا حصل نادرًا، رأيته مرتين أو ثلاث فقط.

- هل يهتم نور بلعبة معينة بشكل مبالغ فيه؟

- طائراتـه، في البداية كان متعلقًـا بها إلى درجة أننا إذا خرجنا دونها يبكي ويغضب ويرفض الخروج. حاله الآن أفضل من السابق، لكنه ما زال يحبها، يدخل الغرفة أحيانًا يسترق إليها نظرة يطمئن عليها ويخرج، يذكرني بالأم حين تدخل غرفة أولادها لترى هل نائمون ومرتاحون أم هناك ما يزعجهم!

ضحكت الدكتورة، وتابعتْ:

- هل يلعب بالألعاب بشكل صحيح؟

- لا، لا يركّـب الألعـاب ولا يجمّعها، لا يسـتخدم اللعبة لغرضها الفعلي، مثلًا عنده مشـط بلاستيكي لا يضعه على شعره، بل يتأمله فقط ثـم يلقـي به، الأمر نفسـه في الألعاب الأخرى، لا يسـتخدمها كالشيء الحقيقي.

- هل يتضايق نور إذا تغير الروتين حوله عن الذي يعرفه؟

- أظـن أنه يلاحظ، لكن لا أعـرف إذا كان يتضايق أم لا بصراحة، لم أنتبه لشيء كهذا.

سرحت بعمق أفكّر في أمر الروتين، وقتها كان شيئًا لم يخطر لي ببال، لكنـه شـغلني - بعد أن ذُكِر أمامـي أول مرة - فقـررت لاحقًا مراقبته بتأنٍّ. عصرت ثنايا ذاكرتي أحاول اسـترجاع أي موقف شـبيه لما تقول، نظرت إلى خالد لعله يسعفني بهذا الشأن، طالعته بيأس، كالغريق الذي يتعلق بقشة، من أين لخالد أن يعرف شيئًا كهذا! ساعاته في البيت قليلة، يفضـل فيهـا أن يرتاح، وحين يرى نور يلعب معـه فقط، دون أن يفكر

أو يحلل أو يستنتج، دون أن يسأل حتى! باغتني سؤالها التالي قبل أن أجد ما يثبت أو ينفي شعور نور نحو الروتين:

- طيب، لو عاد إلى البيت ورأى أن الكنبة ليست في مكانها، يتوتر؟ يقلق؟ يغضب؟

- لا أعرف، هذا شيء مثير للاهتمام، لم أفكر فيه في الحقيقة، سأراقب هذا.

- لو اشتريتِ له حذاء جديدًا، هل يلبسه بسلاسة؟

- ربما يرفض في البداية، أحس أنه يظن أن الحذاء ليس له، لهذا يرفض، أقصد لم أربط الموضوع بالروتين مطلقًا.

- هل يتفاعل مع الأصوات حوله بشكل غير مناسب، كأن يبكي أو يضحك؟

- نعم، يضحك إذا سمع صوتًا عاليًا، أحس أنه يركز فيه جدًا، بؤبؤ عينه يتجمد مكانه ويترك كل شيء يفعله للحظات.

- لو رأى شيئًا يلف، مثل المروحة أو العجلة، هل يتابعه؟

العجلة! أغمضت عيني وشاهدت في خيالي مجيء عيني عليه في مرآة السيارة الأمامية وهو يراقب السيارات المارة باهتمام، نور لم يكن ينظر إلى الناس، ولا إلى السيارة نفسها، نظراته كانت ساقطة نحو الأسفل. هي العجلة! نور ينظر إليها باستمرار. رددت بأسى:

- نعم، يراقبه دون ملل.

- هل يحب أكلًا معينًا إلى درجة أن يطلبه أغلب الوقت؟

- يحب البطاطس المقلية، والفوشار. أحيانًا يبكي دون سبب وينظر ناحية المطبخ، أفهم أنه يريد أحدهما.

- هل يعض الأشياء الصلبة، مثل درابزين الدرج مثلًا؟

- نعم، يعض الألعاب والملابس.

- هل يضع لسانه عليها؟

- أحيانًا، وعلى شعري، أو على خيوط الملابس.

وصل القلق إلى أعلى درجاته في نفسي. لم أفهم ما الأمر بالضبط، لكن أجوبتي - لأن أغلبها «نعم» - لم تكن شيئًا مريحًا بالنسبة إلي. كثيرًا ما أردتُ مقاطعتها صارخة: «ما الأمر؟ ماذا يعني أن يفعل نور كل هذا؟» لكنني أتمالك نفسي على مضض، وأرد على الأسئلة لعلها تنتهي، فأعرف.

- هل تحسين أنه يدرك الخطر؟

ارتحت قليلًا حين قلت:

- نعم، لا يقترب من حافة السور على السطح، ولا المدفأة. لا يخطر ببالي أشياء أخرى.

- هل يركض أمام سيارة تمشي؟

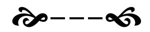
- لا، يدرك أنها مؤذية بشكل ما.

- صفي لي كلامه.

- ليس كلامًا، ولا أستطيع القول إنها مقاطع صوتية، أحس أنه يصدر أصواتًا بسيطة عشوائية، أظنها بلا معنى مقصود.

مـرت أربعـون دقيقـة من الأسـئلة وتقليـب الأوراق، وأنـا أجيب تائهـة، كل سـؤال جديـد يشـعلني ويحسسـني بالتوتر أكثـر وأكثر وأنا أرى إجابتـي تتحـول إلى رقم على ورق الدكتـورة. ماذا يعني أن تكتب «٥ , ٢، ٣، ٥ , ١ ؟» هـل هـذا جيـد؟ أم سيء؟ كما أننـي لا أفهم طريقة معرفة مشـكلة طبية ما بالأسـئلة. منذ كنت طفلة وأنا أعلم أن الطبيب يمسـك سماعته وينهي أسـئلته بكتابة اسـم دواء، أو فحص دم، نجريه لنعـرف ما يتعب أجسـامنا. نظرتْ الدكتورة في عينـي وقالت: «المؤكد أن نـور مصاب بالتوحد، سـأكمل النموذج لأعرف شـدته» أذكر أنني فتحت عيني فوجدت خالد والدكتورة جالسين على الأرض حولي وفي أيديهم زجاجات عطر!

وضعـت نـور في المقعـد الخلفـي، وتنهـدت: «سـأتركك هنـا أنت وطائراتـك، العـب بها كـما تريد. أرجوك لا تضع شـعري في فمك، إذا أردت أن تأكل شـيئًا فخذ علبة البطاطس الحارة التي تحبها، كلْ منها ما تشـاء.» ولم أحس بالوقت بين كلامي له وجملتي التالية: «هيا يا حبيبي، لقد وصلنا عيادة الدكتورة».



(٢)

المدخـل معلق عليـه لافتة زرقاء مكتـوب عليها: «عيـادة الدكتورة سـناء فهمـي.» لولاها لفضلـت أن أدعوها شـيئًا آخر؛ حضانـة مثلًا. المدخـل مثلما تركته قبل سـنتين، هـو ذاته الرصيـف الأزرق والأصفر الممتلـئ بأشـجار الزينـة الخـضراء، عليه غرفـة صغيرة بسـيطة، خليط الأزرق والأبيـض فيهـا يجعلها كأنها قطعة صغيرة سـقطت من السـماء في يـوم صحـو، أمامها كرسي صغـير يجلس عليه رجـل الأمن، يرتدي بدلة بنية، أظنها نفسـها التي رأيتها في المرة الأولى. يخيل إلي أنه لن يخسر وظيفتـه حتـى لو قتل صاحب المـكان! يتوجب على الأطفـال رؤيته في مكانـه كل يوم، هو جـزء من روتينهم. الروتين! تذكرت وقتها سـؤال الدكتورة سناء عن الروتين في الزيارة الأولى. بعدها راقبت نور، فرأيت أشـياء مثيرة للاهتـمام، وجدته يتوتر عندما يزور مكانًـا جديدًا، أو يمر مـن طريـق لا يعرفها. قـررت أن أختبر صحة الأمر أكثـر، فأخبرته أننا ذاهبون إلى جدته، وتعمدت أن أسلك شارعًا لم أعتد المرور منه، فرأيته قلقًـا مشـدوهًا، يـزداد غضبه كلما عبرنـا الطريـق أكثر ولـمّـا يظهر بيت الجـدة بعـد. ثم لاحظت أنـه يجلس على الكرسي نفسـه في النـادي، إذا وجده شـاغرًا يفضّل الاسـتمرار في الحركة عن الجلوس على أي كرسي آخـر. لـو تأخر أبوه عن العمـل، واضطر أن يتواجـد في المنزل صباحًا،

فهو لا يرتـاح، يـروح ويجيء أكثر مـن المعتاد، كأن شـيئًا اختلف عليه. عرفـت بعد ذلك من سـارة أن الأطفال المشـخصين بالتوحد يكرهون تغيير الروتين، يلاحظون التفاصيل البصرية الصغيرة، ويستفزهم تغيير أي شيء بسيط فيها. قالت لي إنها حين تسافر مع ابنتها إلى لندن تحرص عـلى أن تحجز الفندق نفسـه، برقم الغرفـة نفسـها، وإلا فالعاقبة عليها وخيمـة، صراخ وبـكاء وعذاب نفسي. ماذا عليك يـا حبيبي لو أصبح هذا الباب الأسود أخضر، أو اقتلع من جذوره حتى!

- يـا أسـتاذة، البسي الكمامـة من فضلك، وأعطينـي بطاقتك لآخذ البيانات.

الكمامـة! كوفيـد اللعـين. عندما ينتهي هـذا الوباء، هل ستسـتفزك وجوه الناس الطبيعية، بلا أغطية؟

- ندى سراج الراوي. تفضلي يا أستاذة.

***

أخـذت نفسًـا عميقًـا ودخلـت إلى ذلك المكان الذي حـين دخلته - المـرة الوحيـدة في حيـاتي - خرجـت منـه إنسـانة أخـرى، مرهقـة ومهـزوزة ومنطفئة، بلا طاقة أو شـغف، يومها كـبرت عشرين عامًا في سـاعة! ابتسـمت حين رأيت كل شيء كما هو، هذا المكتب سـيبقى إلى يـوم القيامـة على الجدار الداخلي إلى اليسـار، مقابـل دواليب الألعاب. كثيرًا ما أسـأل نفسي كيف يعيش هـؤلاء المختصون؟ أصبح الروتين - رغـمًا عنهـم - جزءًا مـن حياتهم هم أيضًا. هل يغيّرون شـكل بيوتهم؟

هل يسافرون إلى أماكن جديدة؟ أم هم مثلي؟ أنا مكتوب علي ألا أخرج من القاهـرة إلا إلى «العين السـخنة»؛ لأن نور أحـب الركض - حافي القدمـين - عـلى الرمـل فيها، ثم أبـى أن يجرب غيره! مـرة ظننت أنني أستطيع الاحتيال عليه، أخذته مع أبيه إلى «دهب»، وليلتها لم أدعه ينام على الإطلاق، كلما بدأ نومه أوقظه، لكي ينام في السـيارة ولا يفطن إلى الطريـق الجديـدة، وقد نجح الجزء الأول من الخطة، نام نور واسـتيقظ في الفندق، نزلت به سريعًا إلى الشـاطئ، لكنه بكى بحرارة، انتبه إلى أنه شـاطئ غريب عليه. لا أعرف كيـف ينتبه إلى تفاصيل المـكان المعقدة، ظننت أن الشـاطئ بالنسبة إليه ليس إلا رملًا وماءً، لكنني كنت مخطئة. الجانب الجيد في الأمر أن ذاكرة نور البصرية ممتازة!

- كيف حالك يا مدام ندى؟

سألتني الدكتورة سناء عن حالي وهي أعلم الناس به! لا أظن أحدًا في الدنيا يعرف كيف يقضي أهل طفل مشـخص بالتوحد - أو أمهاتهم تحديـدًا - أعمارهم مثل ما تعرف الدكتورة سـناء. حكيت لها حالي منذ تركتها المرة الماضية حتى تلك اللحظة:

- عندمـا سـمعت منكِ تشـخيص نـور - ولم يكن في ذهني سـوى كلمـة أسـمعها في التلفاز أو تتراءى لي في منشـور عـلى الفيس بوك فلا أبـدي نحوهـا اهتمامًـا - بدأت رحلـة القـراءة والبحث عـن التوحد، أردت أن أفهـم مـا هو؟ وكيـف أتعامل معـه؟ ماذا يتوجـب علي فعله حيال هذا الملاك الضعيف الذي يحتاجني الآن كما يحتاج الطعام والماء؟

تهت كثـيرًا في كلام بـدا لي متناقضًـا أو غامضًا، لم أعرف مـن أين أبدأ، وأي المعلومـات ينبغـي لهـا أن تسـبق الأخرى. لكنني خلصـت إلى أنه ينبغـي علي إلحاقه بمراكـز التأهيل، والبحث عن أخصائيين متمرسـين في هذا المجال، وهذا ما حصل بالفعل. لجأت إلى غوغل الذي لم أعرف غـيره لعله يسـعفني، ووجدت أسـماء لمعالجـين ذوي خـبرة، وعناوين مراكـز أمطرهـا النـاس بمديحهـم. جمعـت الأرقـام كلها، ثم جلسـت أصفّيها فأحصر فيها ذوي الاختصاص والخبرة والمكان القريب. بدأت أكلمهم وأزورهم لكي أستقر على الاختيارات الأفضل من بينهم. وفي النهاية عزمت أمري على إلحاق نور في مركز DDUC.

دفعت رسـوم الفصل الأول؛ سـتة وعشرين ألف جنيه، مبلغ كبير، ولكـن عزائـي أنـه مـكان مميز لـن يبخل عـلى ابنـي بالخدمـة المطلوبة. أخـبروني أن نور سـيلتحق بفصـل «النرجس» الذي يحتوي على سـبعة أطفـال قريبـين من عمـره، هو ثامنهـم. وفي الفصـل معلمتـان اثنتان. الرسوم تشمل وجوده في الفصل طوال اليوم، وجلسة واحدة أسبوعيًا لكل من: التخاطب وتنمية المهارات والرياضة. في اليوم الأول وصلت في موعـدي في الثامنة صباحًا، تركت نور لديهـم وذهبت إلى العمل، لم يلبـث أن رن هاتفـي: «نـور يرفـض دخـول الفصل ويبكـي من وقت خروجـك إلى الآن، هل بالإمكان أن تأتي لـيراكِ ويهدأ؟» تقبلت الأمر بسـلام، قلت في نفـسي: «مكان جديد وأناس يراهـم لأول مرة، ثورته هـذه طبيعية!» وقد طمأنوني أيضًا بقولهـم إن كل الأطفال يفعلون هذا

في البدايـة، فـلا داعي للقلق. اسـتمر الأمر عشرة أيـام حتى رضي نور بالأمـر الواقع وتركنـي أهنأ بعملي أو بنوم الصبـاح إذا كنت في إجازة. توجـب عـلي أن أخرج مـن عملي باكـرًا كل يوم لآخذ نور مـن المركز، فدوامـه ينتهي في الثانية ظهرًا، أما أنـا فأجلس في مكتبي في البنك حتى الرابعة أو الخامسـة. هذا سـبّب لي مشـكلة مع مديري، الذي بدأ يحس أن عمـلي لا يتـم على أكمل وجـه. فكرت أن أطلب منـه تحويل عقدي إلى «دوام جزئـي»، لكن قبل تفاقم الأمـور، وإعلان طلبي هذا؛ كانت علاقتي بالمركز منتهية كما ستعرفين من كلامي التالي.

- حسنًا يا حبيبتي، تابعي.

- مـضى الشـهر الأول في المركز وأنا أسـأل كيف حالـه، ولا تأتيني سـوى إجابة واحدة من الكل: «نور جديد ومـا يزال تحت التقييم.» في ذلـك الوقت كنت أسـأل متـى، متى سـينتهي التقييم؟ متى سـيتكلم؟ متى سـتقل حركته؟ متى ستتحسن حالته بشـكل ملحوظ؟ الآن أعلم أن «متـى أي شيء» لا إجابـة لهـا. المهم أن الكل أجمـع في حينها أنه «في علم الغيب»، أفضل ما وصلني من إجابات وأكثرها تنميقًا كان: «ليس علميًـا ولا أخلاقيًا أن أعطيكِ مدة، فهـذا خاضع لعوامل كثيرة، أهمها استجابة الطفل، وتعاون الأهل.» وقد بدأت أتقبل - على مضض - أن نور في مرحلة التقييم التي ستنتهي في علم الغيب، لتتبعها خطة مفصلة بنـاءً على نتائج التقييم، ثـم تطبيق لهذه الخطة على أرض الواقع، وأخيرًا مراجعـة للخطـة بعـد مـدة - لا يعلمهـا إلا الله - لمعرفة مـا تحقق منها وما سيبقى أو يتغير.

وفي منتصف الشهر الثاني – بعد نفاد صبري وإحساسي بأن ما يحدث غير مهني – طلبت مقابلة مديرة المركز، أردت أن أستوضح منها عن وضع ابني بشكل مفصل. رغم إلحاحي الشديد، بمكالمات كثيرة، وزيارات عديدة، لم أسمع سوى حجج بدت لي فارغة: «المديرة مشغولة»، «عندها اجتماع مهم»، «في إجازة.» أحسست بعدم الراحة وقلة المسؤولية، فذهبت هناك وأصررت ألا أغادر المكان حتى أراها، استطعت مقابلتها لعشر دقائق. أخبرتني أن ابني يتحرك كثيرًا ومتأخر في الكلام! قلت في نفسي: «حتى عم عاطف البواب يعلم ذلك!» نمقت العبارة فخرجت من فمي: «ما هو رأي المختصين بشكل دقيق ومفصل من فضلكِ؟» وقتها لم أكن أعلم أن المختصين ليسوا مختصين، وأنهم ليسوا إلا خريجي كليات الحقوق والتاريخ والتجارة الذين ضاقت بهم سبل العيش فاشتغلوا في التأهيل. خرجت من المقابلة بلا فائدة تُذكر سوى أنني كرهت المركز أكثر وأكثر، وأحسست أن نور ليس بأمان فيه!

اعتاد نور البكاء صبيحة كل يوم ونحن نهم بمغادرة البيت، لم يدخل المركز يومًا إلا بالعراك والإجبار. لم يحب نور المركز قط! في بداية الشهر الثالث لاحظت أنه يضرب ظهر يده بالأجسام الصلبة كالطاولة أو باب السيارة. طلبت اجتماعًا مع المديرة –التي تشبه الزئبق– لأفهم منها هذا السلوك الجديد. قبل أن يتم الاجتماع الذي لم يُرتَب له بعد رأيت طفلًا يغادر المركز مع أمه، تظاهر أنه يخرج من الباب وركض

نحـو الآلـة الطابعة في الممر، وضربها بظهر يده ثم عاد إلى أمه كالمنتصر. نور يقلـد رفاقه! دخلت على المديرة مكتبها دون سـابق إنذار، وطلبت منها حضور يوم دراسي مع نور، إجابتها كانت صادمة: «ممنوع يا مدام ندى، إذا لاحظ وجودك سيتشـتت.» تيقنت أن هذا المكان ليس مناسبًا لنور، أصبح عندي ألف سـبب لعدم ارتياحـي له، وعقدت العزم على أن يكـون هـذا الفصـل هو الأول والأخـير هنا. قـررت أن أبحث عن مكان آخر.

استيقظت صبـاح أحد الأيـام - يوم في بداية الشـهر الرابع لنور في المركـز - بـدأت بتغيـير ملابسـه، لفتت نظـري كدمة زرقـاء على باطن فخـذه الأيمـن، جن جنـوني، حملته كـما هـو إلى المركـز، اقتحمت على المديرة مكتبها، وقلت لها مشيرة إلى الكدمة: «ما هذا؟» أجابت ببرودها المعتـاد: «اهدئـي يـا مدام نـدى، ربـما سـقط، أو ضربه أحـد الأولاد، مساكين لا نستطيع لومهم.» وتابعتْ وهي تنظر إلي بخبث: «مَن يجلس مع نور وحدهما؟» شعرت بالاشمئزاز، وغادرت المركز وأنا أتوعدهم بالملاحقة القضائية. لم نعد بعدها إلى هناك.

- خـيرُ مـا فعلـتِ. لو فعـل الكل مثلـك لما وجدنـا قلـة الأمانة في المراكز، ولا غيرها!

- انتهـت علاقتنـا بالمركز إلى الأبد، لكن ما البديل! سـأظلم نور إذا أجلسته بجانبي في البيت، فهذا الطفل الملائكي يحتاج الرعاية. فكرت أن أبحـث بتأنٍّ عن مركز آخر، لكني ترددت؛ لأن مركزًا آخر يعني ارتباطًا

لأربعة شهور على الأقل، لم أرد هذا الارتباط، خبرتي السابقة جعلتني أقرر أنني يجب أن أطمئن تمام الطمأنينة لأي مكان أضع فيه ابني، وأن يكون لي الحق في سحبه من هذا المكان إذا لم أشعر براحة نحوه دون أن أضطر إلى أن أخسر أموالي التي دفعتها مسبقًا، أو وقتَ نور الذي أهدرته فيه. ما الحل إذًا؟ لا أعرف سوى الجلسات الفردية، أخصائيون يأتون إليه في البيت بدل أن يذهب هو إليهم. لجأت إلى غوغل - الذي خذلني أول مرة - للبحث عن أخصائيات تنمية مهارات وتخاطب، اخترت الإناث طبعًا لسهولة دخولهن وخروجهن من بيتي في ظل عدم تواجد خالد، وكلمتهن بالفعل. وسريعًا بدأنا التأهيل: تقييم فخطة وعلاج، العملية نفسها، لكن الطاقم متاح أمامي، أسألهن كلما احتجت إلى ذلك، وأشاهد الجلسات بكامل تفاصيلها. مرت سبعة شهور، والتطور - أو قولي عدمه إذا شئتِ - نفسه، ما زال نور يتحرك كثيرًا، ولا ينظر إلي، ولا ينتبه، ولا يهتم بشيء مما حوله، ولا يتكلم، ويرتدي الحفاظات.

انتهت تجربتاي السابقتان بغصة في نفسي، إلا أنني حاولت أن أنظر إليهما من زاوية أخرى؛ إيجابية وعقلانية أكثر. التجربتان لم تكونا - تمامًا - بلا فائدة، هناك بعض الأمور الجيدة غير المباشرة، مثلًا؛ احتاج الأخصائيون القادمون إلى المنزل أدوات معينة لتخدم أهدافهم التي عملوا عليها، أغلبها ألعاب للأطفال، فجلبت منها الكثير، وعرفت أماكن متنوعة تُوفرها. أما أجمل الأشياء فقد كان أنني تعرفت - من خلال إحدى الأخصائيات - على سارة، أم لبنت شُخصت

بالتوحـد. ابنتهـا أكبر من نور بعامين، تسـتطيعين القول إنها مشـت في هـذا الطريـق قبلي لذلك تسـبقني بخطوات كثيرة، فكنت أسـألها دائماً، وأُثقل عليها بمكالماتي المتأخرة في منتصف الليل، وأسـئلتي السـاذجة، ودموعـي التي لا تعنيها. كثيرًا ما راقبت تيا ابنتها، هي مختلفة عن نور، لديهـا تحديات من نـوع آخر لا أفهمه، آه! وهل فهمـت نور حتى أفهم تيا! اهتمامي بتيا كان أنانيًا أكثر منه إنسـانيًا، هذا ليس طبعي ولكن ربما غلبتني عاطفتي تجاه نور. كنت أطرح أسئلتي حولها لأفهم نور، وأظن أنني حين أراها أشاهده هو بعد سنتين. انتبهتْ سارة لهذا قبلي، قالت لي مـرة: «ما ينطبق على طفل مشـخص بالتوحد ليس بالضرورة أن ينطبق عـلى آخر»، كأنها حينهـا صفعتني أو كأنها قالـت لي: «أحبي تيا لأجلها هـي» لم تغضب مني، بـل تفهمت حالتي، لأنهـا – في الأغلب – مرت بكل هذا قبلي وتجاوزته.

– جميلة صديقتك سارة!

– نعـم، هي كذلك. في يوم من الأيام فتحـت الفيس بوك أتصفحه فجـاء أمامي إعـلان لمركـز (يعالـج) التوحـد بالأكسـجين والأجهزة (الأمريكيـة) المتطـورة. الغريـق يتعلق بقشـة، وفي الغالب لـن تنجيه! ذهبت إلى المركز بالفعل، ودفعت المبلغ الكبير.

لا أعرف كيف قلت للدكتورة سناء بصوت حاد:

– ألا توجـد رقابة عليكم، ألا يوجـد تراخيص مهنية، ومزاولات، نحن نُنهب بدعوى الأمل، أنتم لصوص!

اعتذرت لها سريعًا، وتفهمتني أيضًا. في هذه المرحلة من حياتي كنت كالطفلة المتسرعة التي تخطئ فيحتوي الكبار طيشها. طلبتْ مني بهدوء ومحبة أن أتابع كلامي، فأكملت:

- لا شيء، أربع ساعات ونور داخل جهاز يشبه أجهزة الرنين المغناطيسي. خرج كما دخل بلا فائدة، بل خرج باكيًا مذهولًا! أنا هنا اليوم لأفهم أكثر عن حالة ابني، ولتنصحينني ماذا أفعل بالضبط في الفترة القادمة.

نظرتْ الدكتورة إلى ملاحظاتها التي دونتها - أثناء سماعي - على ملف صغير، بدا أنها تريد استرجاع النقاط الأساسية فيها قبل أن تجيب:

- أتمنى أن يتوصل العلم إلى شفاء كامل للتوحد، للأسف هذا ليس متوفرًا الآن، وكما تعلمين فهو مرض غامض، أقصد من ناحية سببه، ربما إذا عُرف السبب تبعه التفكير بالعلاج.

بكيت، ليس من جملتها الأخيرة، بل من حالتي طوال المقابلة، ربما من حالتي طوال الأشهر الماضية، لا أعرف، طوال كلامي وأنا متماسكة أمنع دموعي، لكنها نزلت غزيرة، قلت لها:

- هناك من يقول إن سبب التوحد هو علاقة الأم بابنها، اهتمام غير كاف منها، هل أنا السبب؟

قامت من مكتبها واحتضنتني:

- كلا يا حبيبتي، لم يثبت العلم شيئًا.

ثم ضحكتْ وتابعت:

– هذا افتراض ذكوري، الرجال يحمّلوننا أمراض أطفالهم أيضًا، ألم يفترض رجل ما أن المرأة تحدد جنس الجنين، ثم جاء العلم ليضرب به على قفـاه، هنـاك رجل آخر على هذا الكوكب يحتـاج أن يحس بتفوقه، فأتانا بهذا الافتراض السخيف.

ثم تابعت بجدية:

– نور يحتاج تركيزك وقوتك الآن، وليس دموعك.

شربُـت كأس الماء الموضـوع أمامي على المكتب، وقامـْت الدكتورة لتجلـب آخر، ثم جلسـتْ على مكتبهـا، وتابعـتْ باحترافية من يحتوى هذه المواقف منذ سنوات طويلة:

– نـور لا بـد أن ينتظـم في مركـز، وإذا احتجتِ جلسـات في البيت فلتكـن مكملة له، لا بديلة عنـه. اذهبي إلى مركز LEM، مركز ممتاز، لو وافقتِ على ذلك أعلميني سأتصل بهم وأخبرهم عن نور.

وتابعتْ:

– مـن حقـك في أي مـكان تذهبـين إليـه أن تسـألي عـن مؤهلات الموظفين، وخبراتهم، وحتى تراخيص المكان.

هززت رأسي بالتأكيد، وسألت:

– والمدرسة؟

– ما بها المدرسة؟

– هل سيذهب نور إلى المدرسة مثل الأطفال الآخرين؟

- وهـل نـور في عمر المدرسـة الآن! لا تفكري في المسـتقبل البعيد، اعملي فقط على الخطوة التالية.

ثم ضحكتْ بصوت عال:

- هيا غادري من هنا قبل أن تسأليني عن جامعة مناسبة.

وابتسمتُ ممتنة:

- عندي فقط سؤال أخير.

- تفضلي.

- هل عند الأطفال المشخصين بالتوحد قدرات خارقة؟

- كلا، هـذا اضطـراب آخـر، اسـمه Savant، قد يـأتي في حالات مـا مـع التوحد، الطفل المشـخص به لديـه قدرات أكبر مـن الاعتيادية -وليسـت خارقـة- في مجال الذاكرة السـمعية أو البصريـة، تجعله يقوم بأعمال مدهشـة، كأن يعزف بدقة مقطوعة موسيقية سمعها مرة واحدة في حياته، أو أن يرسم مدينة كاملة بتفاصيلها إذا رآها مرة واحدة.

سـلمت عليها وغـادرت وكلماتهـا تتكـرر في رأسي: «لا تفكري في المسـتقبل البعيد، اعملي فقط على الخطوة التالية، لا تفكري في المستقبل البعيد، اعملي فقط على الخطوة التالية ...»

---

(٣)

اقتصر كلامي مع الدكتورة سناء على ذكر التحديات التي واجهها نور فقط، فهذا ما أرادت أن تعرفه، وحشدت ملاحظاتها وملفاتها لأجله. للأسف لا يوجد في ملفات الأطباء مكان لمعاناة الأم! لست ألومهم هنا، فيكفيهم ما يواجهونه من تحديات عظيمة مع الأطفال. لا بد أن هناك مختصين آخرين يتعاملون مع الأهل، ربما أخصائيون نفسيون أو اجتماعيون، وربما غيرهم، لا أعرف على وجه التحديد. لم أبحث عن طبيب نفسي كما فعلتْ سارة، اكتفيت بالكلام معها أو مع نفسي، وبالصلاة، وبالأدوية.

عندما خرجت من عند الدكتورة سناء أول مرة لم يتقبل عقلي الكلمة الجديدة عليه: توحد. قاومها كما يقاوم الجسم البكتيريا فينتج كريات الدم البيضاء لمحاربتها، عقلي أنتج الأسئلة: «لماذا نور دون غيره؟»، «هل هذا تشخيص نهائي؟»، «لا بد أن هناك خطأ ما!» لم أستطع التصديق، ولم أرده. لا أظن أن خالد نطق بكلمة واحدة يومها، كان يقود السيارة بجانبي، ربما تكلم، لكنني لم أسمع منه شيئًا. وصلت البيت ودخلت غرفتي، رميت نفسي على السرير. أتذكر أنني نمت، ولما فتحت عيني رأيت أغطية بيضاء لا أعرفها، أخذت ألقي بعيوني المرهقة الذابلة في أرجاء المكان الذي بدا لي غريبًا، لم أجد الساعة المعلقة

على الحائط، اختفت. رأيت بجانبي طاولة رمادية، ألم تكن وردية؟ أكبر حجـماً وأكثـر تنميقًا؟ وعليها صورتنا: أنا وخالـد ونور؟ أين الصورة! أيقظتني أشـعة الشـمس الساقطة على عينَي من شباك لم آلف وجوده في هذا المكان! دخلت الممرضة الغرفة:

- الحمد لله على السلامة مدام ندى.

وضعتِ الأكل وغادرت مبتسمة. لماذا يبتسم الممرضون؟ ومضيفو الطـيران؟ وعاملـو المطاعم؟ وموظفـو البنوك؟ وغيرهـم؟ وغيرهم؟ ابتسـامتهم مصطنعة، جزء من بروتوكول ما، رؤيتها تزعجني، تغرقني في التفكير، ماذا تخفي هذه الابتسـامة الزائفـة التي يُجبَر عليها أصحابها تحت كل الظروف؟ تناولتُ كوب الماء لأشربه، وناديتها:

- أين نور؟

- نور! هل تقصدين ذلك الولد الجميل ذا العيون الخضراء والشعر الأسود المنسدل على عينيه؟

تابعتْ دون أن تنتظر تأكيدي:

- كان طـوال اليوم هنا مع زوجك، لم يغـادر إلا قبل قليل. حبيبي، مثـل القمر! أنـا وكل الموظفات كنا ننتهـز الفرصة لنتـودد إليه، لكنه لم يلتفت لأحد منا.

وأكملت بغمزة:

- ابنك خُطِب خلاص!

لا أعلـم إن كان كلام الممرضـة أسـعدني أم أحزنـني، هـل مدحته!

أم أشـارت إلى مـا يفطر قلبـي دون أن تدري. «مثـل القمر، ولا يلتفت لأحـد.» هذه هي المشـكلة! أخذت هاتفي واتصلـت على خالد، وعلى غير العادة أجاب من المرة الأولى:

- حبيبتي، الحمد لله على السلامة، اطمأننتُ عليكِ وأخذتُ نور إلى البيت لننام، لم ننم منذ البارحة، سآتي إليكِ الآن.

- تعال، وخذني من هنا.

***

دخلـت البيت وقد انطفأ جزء من روحـي، أصبح في خيالي بيتًا غير الـذي عرفتـه، مـكان بلا روح. ليسـت هذه هـي الحياة التـي تصورتها وأردتهـا. بعـد زواجنـا انتظرنـا ثلاث سـنوات حتـى حملت بنـور، كنا مشـتاقين إليـه، نسـهر الليالي نكلمـه كما لو كان جالسًـا معنـا، نفكر في مسـتقبله؛ جامعته وعمله وزوجته وأطفاله، رأيته طفلًا وشابًا ورجلًا، رأيتـه طبيبًا يلبس البالطو الأبيض، ومحاميًـا يترافع في أصعب القضايا. حتـى إننـي بـدأت أبحث عـن أسـاليب التربية كي أنشـئه متميـزًا عن الأطفال الآخرين. تسرب داخلي إحسـاس أن خيالي هذا يتهدّم، كل ما فات وهم، لماذا ليس حقيقيًا!

جـاءت أمي ومنـال لزيارتي. في مـصر زيـارة الأم والأخت في مثل هـذه الظروف إقامة طويلـة. أرادتا الاعتناء بي، أنا أحتـاج إلى عناية! لم تسـتطع منال ترك ابنتها الصغيرة في البيت فجلبتها معها. ابنتها رضوى جميلـة، من عمـر نور، تلهو وتلعـب في البيت مع جدتهـا وأمها ومعي،

ذكيـة عرفـتْ مكان غرفـة نور المـلأى بالألعاب فقـررت الإقامة فيها. كنت أقول في نفسي: «منال تعيش حياة طبيعية، لماذا لا أحيا أنا مثلها!» ثم أطلب من الله أن يسـامحني. لم أقصد تمني التعب لأحد، لم أرد لنفسي سـوى الوضع العـادي لأي أسرة. كثيرًا ما كنت أسـأل نفسي: «هل ما أريده كثير علي!»

فشـل الجميـع في التواصل مع نـور، يرونـه آتيًا من بعيـد فيتغزلون بعيونه وخصلات شـعره وخـدوده، ويمدحـون ذكاءه، وحين يقترب يسـتقبلونه بالأحضـان فيرفضهـم، وسرعان مـا يملّـون، لا أحد يصر عـلى المحاولة أو يبحث عـن طريقة أخرى، خصوصًا في وجود البديل، يومها كان البديل رضوى! إذا كانت العناية طبخًا وغسيلًا وتنظيفًا فقد اعتنتـا بي، لكنني لم أرتح بوجودهما، نظراتهـما إلي ملأى بالحسرة، كثيرًا ما رأيتهـما منفردتان ببعضهما، في لحظات أعـرف أن محور الحديث فيها هو نور. في مرة دخلت على أمي الغرفة وجدتها تبكي، كانت ترثي على حالي بلا شـك، ليسـت هذه هي العناية التي أحتاجها! أحسسـت أنهما عبء علي، وتمنيت رحيلهما بأسرع وقت، ومن أجل هذا بدأت أبتسـم وأقوم بواجبات البيت لكي أشـعرهما أنني بخـير، قوية ولا أحتاجهما. هما ليستا سيئتين، لكن مخزون الحب عندهما مشوّه، اختلطت به الشفقة فأفسدته! الحب ابن الرحمة، الرحمة وحدها دون أي شيء آخر معها!

خالد أيضًا لم يكن سـيئًا، هو ببسـاطة رجل عملي، يفكر في أشغاله، يحـاول أن يجنـي أمـوالًا كافيـة تعيننـا عـلى حياتنـا. كثـيرًا مـا عذرتـه،

فالمصاريـف في ازديـاد، والكماليات أصبحت أساسـيات لا غنى عنها، لكننـي حينهـا احتجته ولم أجده قربي. شـعرت أن نـور ليس له أحد في الدنيا غيري!

***

قـررت التوقف عن إرسـال نـور إلى جدته كل يوم حـين أذهب إلى العمـل. قبل ذلـك اليوم اعتدت على إبقائه عندهـا لتعتني به، لكني لن أصبـح مرتاحـة لذلـك بعد زيارتهـا الأخـيرة لي. بالتأكيد سيشـبع نور احتياجاتـه الجسـدية عند جدته، سـيأكل ويشرب وينام جيدًا، سـيبقى آمنًا، لكنه لن يجد راحته النفسـية هناك وسـط الهمز واللمز. بحثت عن جليسـة أطفال، فلا بد من بديل يراعي شـؤونه. وضعت شرطًا وحيدًا لهـذه الجليسـة، وهو أن تحسـن معاملتـه، ألا يسـمع منهـا كلامًا يسيء إليـه. وجدت الجليسـة سريعًا - عـلى عكس ما ظننـت - فانتظمت في عمـلي، بل أغرقت نفـسي فيه. مهامي الوظيفية تتطلـب مني الكثير من التركيز، خصوصًا أن الخطأ فيها مكلف جدًا، هذا جيد لي، انتشلني من التفكير في أمر نور - وأنا في العمل على الأقل - وأعاد لي ثقتي في نفسي وإحساسي بالطمأنينة.

***

في يـوم مـن الأيـام، صحـوت لأذهـب إلى العمـل، أيقظـت نـور، وأوصلتـه إلى السـيدة التي ترعـاه، لما نزل لـوّح لي بيده وقـال: «باي». انصدمـت، لم أعِ الموقـف، نـور ينظـر إلي، يتواصـل معـي، ويودعنـي.

كبر في نفسي إحساس أنه طفل سليم، وأن في أمر تشخيصه خطأ ما. جاء في خاطري أن أذهب إلى طبيب آخر لتشخيصه من جديد. نزلت من الباب بسرعة وذهبت نحوه، فتحت الباب وقلت: «باي»، لكنه لم يرد علي، انشغل بالنظر إلى حمامة واقفة على العشب أمام بيت المربية. لوحت بيدي مرة أخرى، ناديت: «نور»، لم ينظر إلي. عدت إلى السيارة ووضعت رأسي على المقود وبكيت. لم يقل نور «باي» بعدها إلى الآن.

بعد هذا الموقف أمضيت أسبوعين غاضبة، كلما أجلس مع نور أتكلم إليه بحزم: «هيا قل مرحبا»، «قل ندى»، «قل ماما»، «أنت تستطيع أن تقول»، «قلتَ لي باي قبل هذا، قلها مرة أخرى». كنت أقبض على معصميه الصغيرين بقسوة وأنظر في عينيه مباشرة كما ينظر العدو المستعد لعمل عنيف، وأطلب منه الكلام، فتظهر عليه علامات الانزعاج، ويميل برأسه عني، إذا نظر إلي تكون ثانية واحدة أحس فيها أنه ينظر عبري كأنني شفافة، أحيانًا كان يبكي. أحسست - في هذه الفترة - أنه كرهني!

***

قتلني التفكير، ابني مشخص بالتوحد، بلا تحاليل ولا فحوصات، بلا أطباء حتى، كيف هذا! هل أذهب إلى طبيب ما؟ عشرة أطباء؟ أم أن هذا الوصف التصق بنور كاسمه، ولن يزول عنه؟ ما هو التوحد بالضبط؟ شبح غامض يحوم فوق رأس ابني ولا أراه، لا أفهمه، قوة خفيّة تجعله يتصرف بغرابة، ويتعامل مع كل البشر - بما فيهم أنا -

كأنهم دمى. يبدو أنه أمر واقع، موضوع منتهٍ، لو كنت أحلم لاستيقظت منذ زمن، هذه حقيقة، حتى إن لم أحبها، هكذا هي الدنيا، فيها أمور لا نريدها بشكلها الحالي، لكن علينا تقبّلها كما هي. أناس كثيرون يولدون في أسرة سيئة، أو بلا أسرة، أو فقراء، ماذا سيفعلون؟ هذه حياتهم، وعليهم عيشها.

جافاني النوم وأنا أفكر في حياتي الجديدة، التي سلّمت أمري لها مرغمة غير راضية. فكرت في أي شيء يساعدني، ويخفف حدة توتري، بدأت أستخدم حبوب النوم والاكتئاب بشكل مستمر. الحمد لله، لم أنجرف لاستخدام أشياء أخرى للتكيف مع ظروفي الجديدة، كبعض الأمهات التي عرفتها خلال هذه السنوات. لا أحاول أن أهوّن من خطأ ما فعلت بمقارنتي بغيري، لكن لكل إنسان طاقة تحمل! المهم أنني عدت إلى رشدي بالتدريج، واسترجعت طريقتي اللطيفة في التعامل مع نور، ما ذنب هذا المسكين! إنه المتضرر الأكبر من هذا الأمر.

وشيئًا فشيئًا بدأت أسترخي، وأقلل الأدوية، أتناولها حتى الآن لكن بشكل عرضي، أصبح نومي أفضل، والتزمت بصلاتي التي تركتها لسنوات. خططي المستقبلية تغيرت، وعملي تأثر قليلًا، أدركت هذا، لكنها ليست نهاية العالم، ستمر الأمور على ما يرام بالتأكيد. إذا ضعفت أنا من سيعتني بنور، باغتتني هذه الفكرة كشعاع الشمس على وجه النائم فأيقظتني، وألحّت علي حتى تملكتني، كأن ذهني فرغ من كل شيء عداها، أو صفا لها وحدها. أدركت أن علي التأقلم لكي أبقى

صامدة، والتحول إلى مقاتلة شرسة كي أحميه وأعتني به، علي أن أدخل أنا دنياه إذ استعصى عليه أن يدخل دنيانا.

***

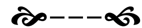
بـدأت بالبحث عن حلول عملية، انتظمت في ذلك المركز المشـؤوم وأنـا تائهـة حائرة، أبحث عن أي إجابـة، أو معلومة، أو خيط رفيع من أمل. حين جاءني إلى البيت بكدمة على سـاقه أحسسـت بشـدة ضعفه، هذا الملاك لا يسـتطيع الدفاعَ عن نفسه، لا يستطيع حتى قول مَن أذاه، ومَـن ضايقه. أكثر من ثلاثين عامًا مضت من عمري ولأول مرة أحس بنعمة القدرة على التعبير. حاولت أن أرى جانبًا مشرقًا في هذه التجربة فاعتبرتهـا محاولـة أولى لنـور في رحلة علاجـه، ولا بـد لأول محاولة أن تكـون غـير ناضجـة. كالحـب الأول للمراهق والعمـل الأول لحديث التخرج كان هذا هو المركز الأول لنور ولي.

بالتزامـن مع بحثي عـن أخصائيين يزورون نـور في البيت، اتخذت أخطـر قـرار في حيـاتي، وهو تـرك العمل. في السـابق، رفضـت الكثير مـن المتقدمـين لخطبتي حـين صارحوني أو لمحـوا لي بإمكانيـة ذلك، لم أتخيـل يومًا أنني سـأفعلها، ولكن هـي الدنيا تجبرنا أحيانًـا على فعل ما لا يخطـر ببالنـا. الأخصائيون القادمـون يحتاجون أحـدًا يبقى معهم في البيت، بالتأكيد لن يكون هذا الأحد خالد. قدمت استقالتي بلا تفكير، خشـيت أن أفكـر ولو قليلًا فأتردد، أقـل شيء أفعله هو أن أهب حياتي لنور. لم يكن هذا أمرًا سهلًا علي، أذكر أنني في البداية تعمدت – في أيام

كثيرة – المرور من أمام البنك، أو زيارته بدون غرض سوى إجابة نداء الحنين بداخلي، صحيح أن نداءً أكبر رسم مصيري وغيّر حياتي، وهو نداء الأمومة، ولكن النوستالجيا كالنيكوتين في رئة المدخن، لا تزول فور توقفه عن شرب السجائر، بل تأخذ وقتها!

***

بعد زيارتي الثانية للدكتورة سناء، قررت الانتقال إلى مرحلة جديدة في حياة ابني. عملت بنصيحتها وأخذته إلى مركز LEM.



(٤)

المركـز الجديـد في المعـادي، المفترَض أنـه ليس بعيـدًا، في الحقيقة لا ينبغي أن تزيد المسـافة إليه من بيتي عن نصف ساعة إذا كانت الشوارع مفتوحـة أمام السـيارات، لكـن متى كانت شـوارع القاهـرة مفتوحة! خصوصًا في الصباح وبعد العصر، حين يذهب الموظفون والطلاب إلى أشـغالهم أو يعودون، عندها كأن العالم كله يصبح في القاهرة! المشـوار يأخذ مني حوالي ساعة يوميًا. تخيلت أنني ونور سنذهب كل يوم ونعود من التجمع إلى المعادي، بداية غير مشجعة! لكن لا بأس، عندي قناعة راسـخة أن ما يبدأ بصعوبة يسير لاحقًا بسلاسة، لا أعرف مصدر هذه الفكرة، أعرف فقط أنني جربتها كثيرًا في حياتي. لعله خير!

GPS اخـتراع عظيم، خصوصًا لمن يعانون مثلي من ضعف الذاكرة المكانيـة، أو عـدم وجودهـا أصلًا! التفـتُّ نحو نور الجالـس في المقعد الخلفي وأنا أحدّث نفسي كما أفعل في كل مرة أفكر فيها بِسِمَة شخصية عنـدي أو عنـده، وتسـاءلت: «مـا حالـك أنت يـا حبيبي مـع الذاكرة المكانيـة؟ متفوق بها؟ أم مثل أمك؟ أظن أنك جيد بها وإلا ما عشـقت الروتـين! أتمنـى أن تكون متفوقًـا بشيء كأولئك الذيـن أخبرتني عنهم الدكتورة سـناء!» حاولت تذكر اسمهم، ثم استسلمت سريعًا. سئمت المصطلحات الأكاديمية، لا أدري لماذا يجلس أخصائي أمامي ويلقي في

آذاني بمحاضرة؛ apraxia vestibular manding! أريد أن أعرف عن حالة ابني لا أن أتخرج في الجامعة. أخبرني GPS أن الوصول بعد خمس وخمسين دقيقة، بسم الله!

تحركت من بيتي في «اللوتس»، المفترَض أن أخرج إلى «الطريق الدائري» وأعبر من «صقر قريش» ثم أدخل المعادي من «جسر طرة.» لا شيء ملفت للنظر في الطريق، هكذا الطرق الخارجية! بدأت أهتم بتفاصيل الطرق بعد أن علمت عن مسألة الروتين عند نور. خشيتي أن يتغير شيء بصري ما في تفاصيل أية رحلة دون أن أعرفه جعلني أركز على ملامح الطريق الذي أقود أو أمشي فيه، والحقّ أنني ندمت على ما فات من عمري دون أن ألاحظ كل هذا الجمال المترامي على الطرق! مصر جميلة! دخلت المعادي فأحسست أنني في نزهة، الأشجار على مدخلها آية إلهية تبعث في النفس الصفاء والطمأنينة. الفرق بين المعادي والتجمع هو الفرق بين جيلنا والجيل الذي يسبقه، الحيّان راقيان، لكن مفهوم الرقي اختلف بمرور الزمان. المعادي أكثر هدوءًا، وأكثر خصوصية، البيوت فيها بعيدة عن بعضها، والأشجار الضخمة تشي بأن السكان لديهم تقدير أكبر لقيمة الاسترخاء، يعرفون جيدًا أهمية الهدوء. أما التجمع فمكان حديث، جميل، بيوته تحف معمارية ذات طابع فني، لكن شبح الرأسمالية – الذي جعل الناس يتراكضون في الدنيا – كدس فيه المستعمرات السكنية، لكن بما يليق بصورتهم الاجتماعية، فصنع الكمباوندات والمولات! سآلف سحر المعادي – إذا

رأيته كل يوم – حتى يصبح عاديًا. الإنسان ينبهر ثم يعتاد، يتضاءل سحر الحسن في نفسه حتى يصبح المميز كالدارج، فيغيب جلاله، ويروح وهجه. كأن الجمال ليس إلا رد فعل مؤقت على الدهشة، فإذا زالت انتهى معها. لعل في هذا نعمة، فهنا تولد في العقل مساحة جديدة لاستيعاب جمال آخر، العقل لا يستوعب حلاوة الدنيا كلها!

«ما رأيك في الطريق يا حبيبي؟ أمستمتع مثلي؟ أم مشغول بطائراتك؟»

***

وصلنا، هكذا قال GPS، رأيت لافتة زرقاء ضخمة على ڤيلا وردية على يمين الطريق مكتوب عليها LEM، هذا هو المركز. بديع من الخارج، تمنيت في نفسي ألا تقل روعته الداخلية عن جمال شكله الخارجي. دخلت:

– صباح الخير، أنا ندى الراوي، أم نور خالد، كلمتكِ الأسبوع الماضي وحجزنا موعدًا مع الدكتورة مها.

– أهلًا وسهلًا، أنا ميرڤت. استريحي يا مدام على الكراسي هنا، املأي النموذج الموجود على الطاولة أمامك، وبعدها ستكون الدكتورة جاهزة لمقابلتك.

نموذج! يشبه ذلك الموجود في DDUC، الأسئلة نفسها بترتيب مختلف: «الاسم؟»، «العمر؟»، «التشخيص؟»، «رقم التليفون؟»، «كيف سمعت بنا؟»، «هل يعاني ابنك من تحديات في: التواصل؟ اللغة؟

السلوك؟ الحركة؟ الذاكرة؟ المهارات الاستقلالية؟ اللعب؟ الأكل؟»، «هل ولادتك طبيعية أم قيصرية؟»، «كم أسبوعًا استمر الحمل؟»، «هل استخدمتِ أدوية أثناء الحمل؟»، «هل يتناول ابنك أية أدوية؟»، «هل يعاني ابنك من مشاكل في النوم؟»، «متى جلس ابنك أول مرة؟»، «متى قال أول كلمة؟»، «هل يبدو مدركًا لمعنى كلامك؟»، «هل يمشي على أطراف أصابعه؟»، «هل تحسين أن جسمه فيه رخاوة؟»، «هل يواجه صعوبة في إتمام المهارات الحركية الدقيقة/ داخل كف يده؟»، «هل يحب لمس الأشياء أو الأشخاص؟»، «هل يكره قص شعره؟»، «هل يضع الأشياء في فمه؟»، «هل يدخل في نوبات غضب؟»، «هل يتحرك كثيرًا؟»، «هل تلقى خدمات تأهيلية من قبل؟ أين؟ ومتى؟»، «ما هي نقاط قوته؟»، «ما هي أهدافك من العلاج؟» أظن أنني سأطلب صورة عن هذا النموذج عندما أنتهي لأحمله أينما ذهبت، قدّرت أنني سأحتاجه في مكان آخر!

***

دخلت المكتب الصغير، وجدت الدكتورة تقف مبتسمة ومرحبة بي، مدت يدها لتصافحني: «أهلًا يا مدام ندى، تفضلي.» أحسست أنني تأخرت بالسلام عليها، لم أشعر بيدي المتجمدة القابضة على إصبعَي السبابة والوسطى في اليد الأخرى، شعرت بالحرج إذ بدا شكلي كمن لا يعرف مكان يده ويبحث عنها. هؤلاء الناس -العاملون في مجال التأهيل- مثيرون للاهتمام، خبرتهم الكبيرة جعلت بمقدورهم طمأنة

الأهـل بأقـل إيماءات ممكنـة! لا شـك أن تعاملهم مع هـؤلاء الأطفال ذكـي أيضًـا. المهنة تـترك بصمتهـا على صاحبهـا، أغلـب الأخصائيين الذيـن رأيتهم هادئون مليئون بالرحمة إلى درجة خلت أنني دخلت عالمًا ملائكيًا حين تواصلت معهم!

تنامى بداخلي إحسـاس أنه ينبغي علي الاحتفاظ بنسـخة من أقوالي وكتابـاتي عندما أقابل أي أخصائـي جديد لأول مرة، فها هي الدكتورة مها تسألني الأسئلة نفسها، وتدفعني للقول إنني أم لطفل لديه تحديات في اللغة، والتواصل، والسـلوك، والحركة، والانتباه! لكن لا بأس، هي لا تعرف ابني بعد، وتريد معرفته لتعمل معه، هذا ضروري بلا شـك، وإلا مـا طلبـه كل مـن أقابله. مـا زلنا في البدايـة الصعبة التي سـيتبعها الخير، كله يهون لأجل خاطر نور!

لم تكـن نتيجـة المقابلـة صادمـة لي، ولا جديدة علي، نور مشـخص بالتوحـد وينبغـي عليه الالتـزام في المركز والخضوع لجلسـات التأهيل المختلفـة. لم تُجـرِ الدكتـورة مهـا اختبـارًا، أكـدت واثقـة أن كلام الدكتورة سـناء في هـذا المجـال قطعـي، فهـي صاحبـة علـم وخبرة في تشـخيص الاضطرابـات الاجتماعيـة وصعوبات التعلـم. لا أعرف ما هـي صعوبـات التعلم هذه، لا أريد أن أعـرف، يكفيني أن أعلم بحالة ابني، فالكلام الكثير مشتتِ لي وأنا أقطع طريق التأهيل لتوّي تائهة مثل طفل صغير أضاعه أبواه في أحد مولات القاهرة.

أخذتنـي الدكتـورة مـن يـدي لترينـي المركـز ذا الطوابـق الثلاثـة،

أدخلتني ستة فصول مختلفة، كل فصل فيه من أربعة إلى ستة طلاب، لم يجلسوا على كراسيهم بالطريقة التي عرفناها في مدارسنا، بل انتشروا تحت عيون معلمتَين بين الجالس على طاولة نصف دائرية، والواقف يبحث عن شيء ما، والراكض نحو اللا شيء، والمستلقي وفي يده لعبة يطالعها كالعاشق. بدا واضحًا فرق العمر بين الطلاب في الفصول المختلفة، رأيت أطفالًا لم يكملوا سنتهم الثالثة متجمعين في فصل، وآخرين في فصول ثانية ربما يقترب سنهم من الخامسة عشرة. زرت صالتَي العلاج الوظيفي والألعاب الرياضية، مكانَين كبيرين مليئين بالمراجيح، والسلالم المعلقة، والاسطوانات الكبيرة، والكرات، أرضهما مغطاة بمراتب عريضة ضخمة، يبدو أنها جاهزة لتمتص الصدمات وتمنع الأذى في حال سقوط الأولاد. في غرفة النطق شاهدت الكثير من المجسمات والكروت والكتب الملونة. سعدت لمّا زرت غرفتَي الموسيقى والفنون، حيث الألوان المبهجة والأدوات الموسيقية الكثيرة المتنوعة، عرفت منها الأورغ، وشاهدت صندوقًا مليئًا بآلات إفريقية بدائية، ميزتها بعد أن رأيتها في السابق في فيلم وثائقي. ثم عرّفتني الدكتورة على الأستاذ طارق مدير الفريق، الذي أكد لي – في حال رغبتي في الالتحاق بالمركز – انضمام نور للفصل الأصغر سنًا، الذي يحتوي طلابًا بين الرابعة والسادسة. في نهاية الجولة أخذتني إلى الحديقة الضخمة المليئة بالألعاب، تشبه تلك الموجودة في المدارس الدولية الكبيرة، ملأى بالزحاليق، والإطارات، والسلالم مصنوعة من الحبال، والمتاهات، وفيها حمام سباحة صغير.

كلمتني الدكتورة كثيرًا أثناء الجولة، قدمت لي الأخصائيين وذكرت مؤهلاتهم. لم أركز في الكلام بشكل كاف، خطفتني المشاهد أكثر. هذه طبيعتي، أرى أكثر مما أسمع. أظن أنني سمعتها تطمئنني إلى وجود الكاميرات في كل ركن في المركز. هؤلاء المختصون يعرفون مخاوف الأهل دون أن تُذكر أمامهم، هذا أمر جيد بلا شك! أحسست بالارتياح، وقررت فورًا إلحاق نور بهذا المركز، أعربت للدكتورة عن رغبتي هذه، فأخذتني إلى السكرتيرة لأدفع المصاريف الكبيرة وأنهي الإجراءات، وأعطتني موعدًا في الغد - إذا أحببت - للقاء الفريق، أكدتْ أن هذا إجراء روتيني مهم في عملية التقييم، وليس معروفًا يحصل من أجل خاطر الدكتورة سناء.

خرجت من البوابة نحو السيارة، تمهلت قليلًا لمّا خطفت عيني حمامة بيضاء تقف بوداعة على العشب المترامي أمام الباب، تنقر شيئًا ما غير واضح، وتحرك رأسها إلى الأسفل والأعلى بسرعة. تركتها مطمئنة أنتظر الغد بحماس وأدعو لنور بالتوفيق والتحسن.

---

(٥)

في اليـوم التـالي، عبرت ذلـك الطريق الجميـل نحو المركـز، ومعي نـور. لم أُعلم خالد بالاجتماع؛ لأن في ذلك طلب ضمني منه بالحضور، وبالطبع كان سـيرفض لظروف عملـه، فيزعجني برفضه. أن يقول «لا أقـدر» في خيـالي أفضل أن يقولها في الحقيقـة. اخترت عدم إخباره لكي أسـتطيع أن أحتـال عـلى نفسي فأقول لها إنـه لا يعلم بالاجتـماع، فتهدأ حتـى لـو مخدوعـة! تمنيت كثيرًا أن يسـير خالـد معي قدمًا عـلى قدم في طريق تأهيل نور، كما يسـير معي في الحياة. أعـذره وأحتاجه، فتتأرجح مشاعري نحوه بين الرضا والغضب والتمني والرجاء! وأجدني أقترب منه، وأبتعد عنه، وأتجاهله، وأغضب منه، وأبكي على كتفه.

أجلستني ميرڤت على طاولة في الحديقة، وأكدت لي بصوتها الهادئ: «سيكون فريق العمل معك خلال خمس دقائق.» الكرسي الذي اختارته لي بمكـر -على ما يبدو- يجعل الجالس عليـه معطيًا ظهره للحديقة، لا يرى أمامه سـوى الحائـط الفاصل بينها وبين مكان الاسـتقبال. هؤلاء النـاس أذكياء، يزداد إعجابي بهـم في كل مرة أتعامل فيها معهم! التفتُّ بـرأسي إلى الخلف لأشـاهد الأطفال في هذه الدقائـق المعدودة، تأكدت حينهـا من جملة سـارة: «كل واحـد منهم لديه عالمه الخـاص، لا تحاولي أن تفهمـي أو تتوقعي نور بمراقبة تيـا أو غيرها.» بالفعل فقد كان أحد

الأولاد يلـف حول نفسـه في دوائر مـع عقارب السـاعة، وآخر يغطي أذنيه بيديه وتبدو عليه علامات الانزعاج، وثالث يقفز فوق الترامبولين أفضل مما يفعل لاعب جمباز محترف، ورابع يلصق ظهره بالحائط وعيناه نصـف مغمضتين، وخامـس ترك أماكـن الظل كلها واختـار الذهاب والعودة - بلا هدف واضح لي - تحت أشـعة شمس أغسطس الحارقة، لكنه بدا سعيدًا جدًا بهذا الاختيار!

لم أعـرف كـم مـضى مـن الوقت حتـى جـاءت مجموعة مـن الناس نحـوي، وجلسـوا عـلى الكـراسي المحيطـة بي ينظـرون إلي مبتسـمين. تذكـرت منهـم طارق - الـذي رأيته المرة الماضيـة - رحب بي، وأخرج ملفًا وقلمًا، وبدأ الحديث:

- أهلًا بكِ يا مدام ندى.

- أهلًا بكَ.

طارق يتكلم كمدير كلاسـيكي، نظراته حادة وثابتة، وجمله قصيرة متتابعة قلّما تخرج من صلب الموضوع. تابع:

- الاجتـماع اليـوم يحـضره كل من: الأسـتاذة منال والأسـتاذة دينا معلمتَـي الفصـل، والأسـتاذة أمل والأسـتاذة نادين من قسـم النطق، والأستاذ غيث والأستاذة لمى من قسم العلاج الوظيفي، والأستاذة تالا من قسـم تحليل السـلوك، والأستاذ ضياء من قسـم الفنون، والأستاذة كريستين من قسم الموسيقى، والأستاذ محمود من قسم الرياضة.

كان يقول الأسماء ويدونها في ورقة داخل الملف الذي يحمله، بدا لي

أنه سيكتب تفاصيل الاجتماع. هذا تصرف مهني للغاية، لا يفعله سوى ذوي الكفاءة والخبرة، كان كفيلًا أن يزيد إعجابي بمختصي المجال في هذا المركز. رفع رأسه عن الملف، ثم تابع:

– تتم عملية التقييم للأطفال المشخصين باضطراب طيف التوحد بعدة طرق، أولها مقابلة الأهل، وهذا ما نفعله الآن. سيسألك كل واحد من فريق الأخصائيين مجموعة أسئلة تساعده على فهم نور أكثر. أرجو ألا يضيق صدرك بالأسئلة الكثيرة، تذكري أن التقييم الكافي مهم جدًا للتأهيل الأفضل.

أومأت رأسي بالتأييد وهو يتابع:

– سنبدأ مع الأستاذة أمل.

أدرت رأسي نحو فتاة تتكلم بصوت هادئ منخفض، أظنها قالت إنها خريجة ليسانس صوتيات في جامعة الإسكندرية، لم أسمع سنة التخرج جيدًا، قدرتها بما بعد ٢٠١٥ بناءً على عمرها الذي بدا في نهاية العشرينيات. الفريق كله فتي، أعمارهم لا تزيد عن الخامسة والثلاثين في ظني. بعد أن عرّفت نفسها، قالت:

– نور، اسم جميل، عرفنا من ملفه عمرَه وتاريخَه الطبي، لن نتعبك بالأسئلة عنها مرة أخرى، سنسأل عن أشياء أخرى.

ثم أمسكت قلمها، وبدأت بطرح الأسئلة:

– ما هو ترتيب نور بين إخوته؟

– نور وحيد.

– يا حبيبي! هل يميز أهله: أنتِ وأباه وأقاربه؟

– أظن أنه يميزنا كلنا، خصوصًا أنا، إذا كنا في وسط مجموعة وأراد شيئًا، يأتي إلي أنا مباشرة، وإذا لم يجدني يبحث عني.

– كيف يطلب حاجته منك؟

– إذا كان يعـرف مكانها يمسـكني مـن يـدي ويأخذني إليهـا، أما الأشياء التي لا يعرف أين تكون يطلبها بالصراخ، وأحيانًا بالبكاء.

– ولا يقول أي كلمة؟

– قـال في السـابق: «مامـا»، «ومـا»، أظنـه يقصـد بها مـاء، لكنه لا يسـتخدمها في وقتها، أقصد لا يقول «مامـا» حين ينادي علي، ولا «ما» حين يعطش. ويقول أحيانًا كلمات بينه وبين نفسـه، لا أميزها، أظن من بينهـا طائـرة، يقول يارة. ويردد كالصدى ورائـي بعض الكلمات، مثلًا إذا سـألته: «كيف حالك؟» يرد: «حالك» مرة واحدة فقط قال «باي»، ودّعني وهو ينزل إلى مربيته، لكنه لم يكررها.

– هل لديه مشاكل في الأكل أو الشرب؟

– مشاكل لا، لكنه لا يحب كل الأطعمة.

تابعـت وأنا أراقـب نظرات أمل نحـو غيث، كأنها تلفـت نظره إلى المعلومة التي ذكرتُها:

– لا يعرف استخدام الشاليموه، إذا كان هذا جزء من السؤال.

– نعم، جزء مهم. وهل يعرف النفخ؟

– لا أدري، لم أره يفعلها، في الحقيقة لم يخطر ببالي متابعتها.

- هل عمل اختبار سمع في السابق؟
- كلا.
- هل أخذ جلسات نطق في أي مكان؟
- نعم، أخذ في مركز لمدة أربعة شهور، وكان يأتيه أخصائي في البيت مرتين في الأسبوع لمدة سبعة شهور تقريبًا، لكن لم أرَ أي تحسن عليه.
- في البيت، تستخدمون العربية في التواصل؟ أم لغة أخرى؟
- العربية.
- ما هي أهدافك من إلحاقه بقسم النطق؟
- أن يكون قادرًا على الكلام.

وضعت أمل القلم من يدها:

- أخذنا المعلومات التي نحتاجها الآن، سيبقى تحت التقييم لمدة أسبوعين لاحقين، لكن أريد منك عمل اختبار سمع له، وأخبرينا بالنتائج.
- حسنًا.

أحسست - وأمل تحدثني - بمهنيتها العالية، وأفكارها المنظمة، هذا الشعور طمأنني وجعل وقع الأسئلة وطول الوقت خفيفًا علي. عندما انتهت أمل من كلامها تحدث الشاب الذي بجانبها مباشرة، بالطريقة نفسها من حيث التعريف بنفسه ومؤهله:

- أنا غيث، حاصل على بكالوريوس العلاج الوظيفي من جامعة تورنتو عام ٢٠١١، مرخص للعمل كأخصائي تكامل حسي من جامعة

جنوب كاليفورنيا منذ ٢٠١٥. سأسألك بعض الأسئلة.

أومأت برأسي، فبدأ:

- هل تلقّى نور جلسات علاج وظيفي في السابق؟

- كلا.

- هل يعاني نور من أي مشكلات حسية؟

مشكلات حسية! بدا هذا مصطلحًا جديدًا علي، لم أفهمه، شعرت بالخجل وأنا أستفهم عنه:

- عفوًا، في الحقيقة لا أعرف ماذا تقصد بالمشكلات الحسية. هل توضح لي من فضلك؟

- بالتأكيد. كما يبدو من اسمها فهي تحديات تتعلق بالحواس. سنجيب على سؤالي بالتعرض للحواس الخمسة واحدة واحدة، سنبدأ بحاسة اللمس، هل يحب لمس الأشخاص أو الأشياء كثيرًا؟ أو يتجنبها؟

- لا أظن ذلك، لم ألحظه.

- الحاسة الثانية هي التذوق، هل يضع الأشياء في فمه؟

- نعم، الآن يأكل الرمل والطين، ويعض على الألعاب والملابس.

- فلنترك العض على الأشياء، ونتحدث عن تذوق الأشياء أو أكلها. هل يأكل الطين والرمل؟ أم يتذوقه؟

- أظن أنه يأكل منه. ويضع شعري في فمه، ليس شعري فقط، إذا استطاع الوصول إلى شعر أحد آخر قد يفعلها، وخصوصًا البنات؛

لأن شعرهن طويل.

- قلتِ في الإجابة السابقة: «الآن»، هل كان في السابق يأكل أو يتذوق أشياء أخرى؟

- نعم، كان يضع في فمه خيوط الملابس، وأحيانا يأكلها.

- بالنسبة للضوء، هل يتضايق منه؟ أو يحب الضوء الساطع؟

- لم ألاحظ شيئًا كهذا.

- هل يحب شم الأشخاص أو الأشياء كثيرًا؟ أو يتجنبها؟

- لم ألاحظ هذا أيضًا.

- هل ردة فعله على الأصوات عادية؟

- لا يتضايق منها. بالعكس يحبها، يضحك حين يكون صوت التلفاز عاليًا، يخيل إلي أحيانًا أنه - في وسط صراخه - يبتسم، كأن صوته العالي يعجبه.

- هل يتحرك كثيرًا؟

- جدًا. يقفز ويجري طوال اليوم، ولا يتعب.

- هل يدور حول نفسه؟

- في السابق، عندما كان عمره سنتين، بقي يفعلها إلى فترة قريبة، ربما إلى ستة أشهر، لكنه توقف الآن.

- هل يرفرف بيديه؟

- الآن لا، كان يفعل ذلك منذ حوالي سنتين، استمر لشهور ثم توقف.

- أخبريني الآن عن عض الأشياء من فضلك؟

- بـدأ يعـض على الألعاب والملابس منذ سـنة، وما يـزال، أظن أنه يفضل الصلبة منها.

- قلتِ -في حديثكِ مع الأستاذة أمل- إنه يحب أطعمة معينة، ما هي؟

- يحب الأكل المقرمش، والفلفل، واللحوم المشـوية. لا يحب الموز، ولا الزبادي، ولا البطاطس المهروسة، ولا المعكرونة.

- هل تركيزه جيد؟

- كلا، لا يركـز في الأشـياء إلا ثـواني، دائماً يبـدأ أي لعبة ثم يتركها بسرعة ليجري أو يقفز.

- هل يعاني من مشاكل في النوم؟

- نعم، يواجه صعوبة في بدء النوم، يبقى يقظًا على سريره مدة كبيرة تمتد إلى ساعات، وأحيانًا يقفز على سريره. لا ينام ساعات كافية، خمس ساعات تقريبًا، لكنه يبقى نشيطًا، ولا ينام في وسط اليوم.

- ما هي أهدافك من العلاج الوظيفي؟

أحسسـت بالحرج، فحينهـا لم أكن أعرف ما هو العـلاج الوظيفي، رددت باقتضاب:

- آسـفة، لم يتلقَّ نور العلاج الوظيفي قبل الآن، لا أسـتطيع تحديد أهدافي منه بالضبط.

- لا عليكِ، التخصص غير معروف، خصوصًا هنا في مصر، حيث لا توجـد جامعـات تمنح درجـات أكاديمية فيه، سـنتعرف عليه خلال

تواجد نور معنا، وحينها سنضع الأهداف معًا.

وضع غيث القلم، كأنه قال: «انتهت الأسئلة»، وأعطاني نموذجًا من ورقتين، نظرت إليه فوجدته معنونًا ب «SPM-2» طلب مني ملأه:

- هذا استبيان مهم لتقييم القدرات الحسية، اختبار مقنن يملؤه الأهل، ثم نقوم باستخلاص النتائج منه. هو جزء مهم من عملية التقييم. املئيه وأحضريه معك المرة القادمة من فضلك. تواصلي معنا إذا واجهتِ مشاكل في بعض المصطلحات. كما نرجو منكِ عمل فحوصات الحديد ومخزون الحديد والزنك، وإحضار النتيجة.

تأكدَ أنني تلقيت الرسالة، فتابع:

- إذا لم يكن لديكِ أية أسئلة، فقد انتهينا من العلاج الوظيفي.

- لا أسئلة لدي، شكرًا.

- العفو. سنراقب نور أسبوعين، نكون بعدها أكملنا عملية التقييم، وسنعلمكِ بالنتائج.

انتهى كلامي مع غيث. لم أفهم ما هو العلاج الوظيفي، بالتأكيد لم يكن علي أن أفهم كل شيء منذ أول مقابلة، لكن إحساسي ناحية هذا القسم كانت إيجابية أيضًا، فغيث كان يجمع بعض المعلومات ثم يسأل عن سلوكيات بعينها يقوم بها نور، كأنه يريد التأكيد لا الإجابة، وهو ما أشعرني أنه يمسك خيطًا غامضًا ويرتب أشياء تبدو - بالنسبة إلي - غير ذات صلة.

ازدادت سـعادتي ومشـاعري الإيجابيـة حـين بدأ أخصائـي العلاج بالفن كلامه:

- عوضًـا عـن أهميـة الفـن كنشـاط إنسـاني وترفيهي، فهو شـكل مـن أشـكال التعبير عن النفـس، إذ من الممكـن زيادة فهـم الطفل من خـلال رسـوماته حتى لو كانـت بدائيـة، لذلك بـدأتِ الجامعات منح الدرجـات العلمية فيه، ثم ظهر لاحقًا مصطلـح العلاج بالفن، وكنتُ مـن المحظوظين الذين تخرجوا في جامعة القاهرة عام ٢٠٠٨. لن أطيل عليكِ، سأسـألكِ سـؤالًا واحدًا فقط: ما هي ميول نور؟ بشـكل أدق: هل يحب الرسم على الجدران؟ أو الورق؟ أم يتحرك كثيرًا؟

أجبـت وعيناي مغمضتـان ووجهي تعلوه ابتسـامة المندهش بعمل فنـي بديـع: «يتحرك كثيرًا» هـذا الرجل مقدمته سـاحرة، غـير ملتزمة بتقاليد الأخصائيين من قبله، لم يسـأل إلا سـؤالًا واحدًا، ولم يكتب أية كلمـة، بـل لم أرَ معه قلمًا أو ورقة. لم أسـتغرب هذا، فحسـب علمي أن الإنسان إما تقليدي أو فنان.

اتسعَت ابتسامتي لمّا بدأت كريستين كلامها، وهي أخصائية العلاج بالموسيقى، فن وموسيقى في خمس دقائق، يبدو أن هذا يوم حظ روحي المتعبة. أشعر أنني أريد الانضمام لهذا المركز مع نور. لم أنتبه لما قالت عن شـهادتها وعمرها، بـدا أنها في بداية الثلاثينـات، أيقظني ارتفاع صوتها الحاد كمن يكرر جملة على مسامع السرحان:

- مدام ندى!

- نعم.

- عرفت منكِ أن نور يحب الصوت العالي، لا شك أننا سنستفيد من هذا في جلساته معنا، هل سبق وأن لاحظتِ اهتمامه بأي آلة موسيقية؟

- في الحقيقة، كلا.

- لا عليكِ، فمن النادر أن تكون الإجابة نعم، سنعرف ذلك مع الوقت.

رجوتها في نفسي أن تعرف، فمن الجميل أن يهتم نور بموسيقى ما، أو آلة موسيقية معينة. تذكرت كلام الدكتورة سناء عن موهوبي الموسيقى، رجوت أن يكون نور أحدهم. ازداد يقيني - كلما كلمت أحدًا جديدًا من الفريق - أن الأيام القادمة ستكشف لي الكثير عن نور، أسئلتهم الموجهة الدقيقة أكدت لي أنهم سيساعدونني على فهمه والتعامل معه.

قطع تأملاتي الشاعرية صوت الأستاذة منال، التي بدا من شكلها أنها أصغر أعضاء الفريق. تأكدت من هذا عندما قالت إنها خريجة علم النفس في الجامعة الأمريكية في القاهرة عام ٢٠٢٠. لم تقلقني قلة خبرتها، فقد سيطر علي شعوري بالثقة تجاه هذا المكان وخياراته. كانت مقابلتها سريعة، قالت وعيناها الزرقاوان تتحركان ككرة السلة، ترتطمان بالطاولة كل بضع دقائق ثم تعودان إلي:

- سنعمل مع نور في الفصل على جانبين؛ الأول: المهارات

الاستقلالية، مثل الأكل والشرب والذهاب إلى الحمام؛ والثاني: المهارات الأكاديمية التي ستساعده في المدرسة.

ثم سألتْ بسرعة كأنها أرادت إنهاء دورها بأقل وقت ممكن:

- هل لديكِ أولويات تسبق الأخرى في هذه المجالات، لنركز عليها؟

- أثق بخياراتكم، لكن أتمنى التركيز على الذهاب إلى الحمام. ما زال نور يرتدي الحفاظات إلى الآن.

هزت رأسها بخجل، وتابعتْ:

- وبالنسبة للمهارات الأكاديمية، هل تفضلين العربية أم الإنجليزية؟

فاجأني هذا السؤال، لم أفكر سابقًا في أمر كهذا، فقلت:

- لا أعلم، أيهما أفضل؟

صمتت منال للحظات كأنها ترددت بالإجابة، فاستدركها طارق:

- الإنجليزية أفضل؛ لأن دمج الأطفال ذوي القدرات الخاصة أفضل في المدارس الدولية عنه في المدارس الأخرى، رأينا هذا من واقع خبرتنا، وهناك سيحتاج نور الإنجليزية.

- هل سيتعارض هذا مع تعلمه العربية؟ أقصد هل سيبطئه مثلًا؟ بالتأكيد العربية مهمة في البيت وفي الشارع.

تابع طارق الإجابة بدلًا عن منال:

- كلا لن يتعارض، سيتعلم العربية للتواصل، والإنجليزية للتعليم المدرسي.

لم أشـعر أن تفكير منـال منتظم كالآخرين، ربما بسـبب قلة خبرتها، التـي أثـرت أيضًا على تواصلهـا معي، فبدت مرتبكـة وخجولة، لكني مـا زلت واثقة فيها، وسـعيدة بأنها سـتعمل مع ابني، كما أنها سـتتناول جوانـب مهمـةً في حياته، ربما الأهـم - هكذا تخيلت حينهـا - أريد أن يستقل نور في أكله ولبسه وأموره اليومية.

نظرت إلى الأستاذ طارق الذي هم بالحديث معي:

- أخذنـا مـن وقتـكِ الكثـير، لـن نعطلك طويـلًا، فلم يبقَ سـوى الأسـتاذ محمـود أخصائـي التربية الرياضية، والأسـتاذة تـالا أخصائية تحليل السلوك.

وأشار إلى الأخصائي الجالس في الكرسي المقابل لي بالضبط:

- تفضل يا أستاذ.

- عرفـت من كلامك أن نور يحب الحركة، حبه هذا سـيكون دافعًا ذاتيًا للتطور معنا، حيث سنوظف هذه الحركة ونستخدمها في الأنشطة الرياضية.

- هذا صحيح، نور لا يتوقف عن الحركة، سيحب الرياضة حتمًا.

- نحتاج أن نعرف إذا كان قد خضع لجراحة ما؟

- كلا.

- هل يعاني من أية أمراض مزمنة؟

- لا.

- هل يدخل في حالات غضب لا يمكن السيطرة عليها؟

- يشعر بالإحباط كثيرًا، ويغضب، ويصرخ، لكن يمكن السيطرة عليه.

- هل شعرت أنه منجذب لرياضة معينة؟

- لا، حركته عشوائية، حين نتجول في النادي يقف أمام ملعب التنس، لكن لا أظن أن ذلك من أجل التنس نفسها، فهو يراقب جانب الملعب، لا أعرف ما الذي يعجبه هناك بالظبط! أيضًا يحب حمام السباحة، يتجه نحوه، ويضع قدمه أو يده فيه، يشعر بالسرور إذا كانت المياه ساخنة أو باردة، ويرفع قدمه سريعًا إذا شعر أن الماء فاتر.

نظر محمود إلى غيث بطرف عينه - كما فعلتْ أمل في بداية الاجتماع - لم يبدُ أن غيث انتظر إيماءة محمود ليدون ملاحظة ما على الورق أمامه. شعرت أنني أريد أن أستعجل الأيام لأفهم بالضبط ماذا يفعل غيث، وما هو العلاج الوظيفي. تابع محمود بصوته الرخيم:

- ما هي توقعاتك من قسم الرياضة؟

- أن ينتظم في رياضة، أية واحدة، وأن تختفي حركته العشوائية.

- سنعمل على هذا.

هززت رأسي بامتنان، لا أستطيع إخفاء إعجابي بهذا المكان، إنهم يتناولون كل الجوانب الإنسانية المتعلقة بنور: مهارات حياتية، وكلام، وتحضير للمدرسة، وسيحدثونني عن السلوك، بل ويصلون باهتمامهم إلى الجوانب الروحية التي تعد رفاهية: الفن والموسيقى والرياضة، وهناك ذلك العصي الغامض الذي يسمى علاج وظيفي، لا أعرف

كيـف أصنفه، لكن أسـئلته مهمـة، تبدو أساسـية، تطـرق إلى التركيز، ومشاكل النوم، والحركة الزائدة، سأعرف كل شيء عنه بلا شك!

نظرت إلى تالا، آخر من تبقى من الفريق. كانت تقلب أوراقًا كثيرة، معهـا ملـف كبير، ليس مجرد ورقة كالآخرين. سـألت نفـسي إذا كانت هذه إشـارة إلى أن السلوك سيشـغل حيزًا كبيرًا في تأهيل نور! سأعرف هذا بالتأكيد، هي مسـألة وقت وسـأعرف كل شيء. انتظرتها ثواني قبل أن تقول:

– في البدايـة، أنا تالا، أنهيت ماجسـتير تحليل السـلوك عام ٢٠٢١ في جامعـة كوينـز، وأخصائي تحليل سـلوك معتمـد BCBA من مجلس اعتماد محللي السلوك BACB. السلوك ببساطة هو كل الأنشطة الظاهرة التي يفعلها الإنسـان، ونحن هنا سـنركز على السـلوك غـير المرغوب، مثـل: الضرب، أو الصراخ. فكري قليلًا، وأخبريني بالسـلوكيات غير المرغوبة التي يقوم بها نور، سواءً تعرفين سببها أو لا.

– حسـنًا، ذكرتُ أنه يتحرك كثيرًا، ويعض على الملابس والأدوات، ويقترب من شعر الناس ليضعه في فمه، سأضيف عليها أنه يضغط على الأشياء بشدة.

صمتُّ للحظة ركزت فيها مع غيث الذي دون شـيئًا ما على ورقته، كأن سلوكًا من الذي قلته لفت نظره. ثم تابعتُ:

– يصـدر أصواتًـا عاليـة وينظـر إلي مبتسـمًا كأنـه يتواصـل معي أو يراقب رد فعلي. يدخل المطبخ ويرتب المعالق والسـكاكين في صفوف.

لا يلعب مع الأطفال الآخرين. في السابق كان يضرب الألعاب في الحائط ويراقبني أيضًا، وكان يرتب الألعاب – وخصوصًا الطائرات – في صفوف.

– ذكرتِ أنه يراقبك حين يقوم ببعض السلوكيات، ماذا يكون رد فعلك؟

– حين كان يلقي بالألعاب على الحائط أمنعه، وأقول له: «توقف»، «ستدمر اللعبة»، وعندما يصدر أصواتًا، أقول له: «صوتك عالٍ»، «ماذا تريد؟»، وأحيانًا أقلد أنا صوته.

– هل يحب شيئًا بشكل كبير، بحيث نستطيع استخدامه كمعزز له في الأنشطة الأخرى؟ قد يكون هذا الشيء أكلًا أو لعبة أو نشاطًا.

– يحب طائراته كثيرًا، ويحب الفوشار.

– ما هي أهدافك التي تريدين العمل عليها؟ فيما يخص السلوك طبعًا.

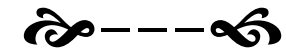
– أهدافي أن تختفي هذه السلوكيات، وأن أفهم أسباب تصرفاته. أريد أن أعرف كيف أتعامل معه بشكل يرضيه دون أن أؤثر عليه سلبًا.

– هذه أهداف مشروعة طبعًا، سنحاول العمل عليها معًا.

أغلقت ملفها، وتكلم طارق:

– سيجلس نور معنا أسبوعين، وهي المرحلة الثانية والأخيرة من التقييم، سنلاحظه خلالها، كل على حدة، ونجتمع مرة أخرى لنوافيك بالنتائج والأهداف.

وقـف الجميـع، سـلموا علي وذهبـوا. انتهـى الاجتماع وأنـا منبهرة بالمـكان والفريـق، أعجبتنـي الشـمولية، ولفت نظـري الاختصاص، وأرضاني التنسيق الكبير الجلي بينهم، من الواضح أنهم فريق متجانس. خرجت متأكدة أن الأيام القادمة سـتعرفني على نور أكثر، ومطمئنة أنه سيتحسن. لم أطق صبرًا على انقضاء الأسبوعين التاليين.



(٦)

انتظرت انتهاء الاسبوعين متوترة أكثر من عروس تجهز لليلة العمر! كيف لا! قالوا لي في المركز إن نور سيخضع لتقييم شامل خلالها، ثم سيبلغونني عن كل شيء يخصه. أحسست أنني أقترب من أن أعرف نور! لا أذكر أنني صلّيت في حياتي قدر ما صليت تلك الليلة، أمضيتها أقوم من ركوع وأجلس من سجود أدعو لنور. أعرف أن دعوة الأم لابنها مستجابة، ونور ليس كأي ابن، الله ميزه عن غيره، أحبه منذ أول يوم له في الدنيا، وخصه بالثواب الأبدي في الآخرة دون حساب، كم هو محظوظ! أما الآن فهو في الدنيا، حيث يحتاج إلى رعاية، حبيبي ليس مستقلاً في شؤونه البسيطة، بينه وبين أقرانه فجوة في الإمكانيات، واجبي نحوه أن أعتني به، وأساعده في ملئها.

كل شيء حولي كان يبعث في نفسي الأمل ويدعوني للتفاؤل، باستثناء حرارة شمس أغسطس التي تنقض علي فور خروجي من البيت نحو السيارة. هي مسافة قصيرة لكنها كافية أن تجعل نفسي تراودني بالعودة إلى البيت والاستلقاء فوق السرير حتى الغروب. لو أن شمس أغسطس هي أصعب ما سأواجهه في رحلتي مع نور فمرحبًا بها، ليت الشهور كلها أغسطس إذا كان ابني سيتعافى مقابل هذا! الصحة نعمة كبيرة، إذا زالت عن الإنسان – أو عمن يحب – يهون عليه

أن يقايـض كل ما اعتاد عليه من نعم بهـا! خرجت من البيت، وركبت السـيارة، فتحت المكيف بالطبع! وفتحت المسـجل أيضًـا، فانطلق منه صـوت كاظـم الشـجي: «عصفورة قلبـي، نيسـاني، يا رمـل البحر، آه وروح الروح، ويـا غابات الزيتون، يا طعم الثلج، وطعم النار، ونكهة شـكي ويقيني.» صوتـه يلقيني إلى قبل عشر سـنوات مضت، حين كنا نسـمعه دون هموم ولا مسؤوليات. عشنا في عالم وردي، آخر غير هذا، ضفائرنا معقودة، وبالنا مشـغول لشـهور بنظرة من زميل لنا في الفصل أو بوردة نجدها بالصدفة في كتاب! نؤلف في خيالنا حكايات لا أساس لهـا، ما أخصب خيـال المراهقات! ما زال كاظم موجـودًا، لكنه أصبح مثل آلة الزمن، نسـافر بها إلى مكان غير حقيقـي، عالم جميل بناه خيالنا، دنيا سـاهرية ملأى بالياسـمين، وصوت الناي، وصخب نزار وكريم! أقلعـت إلى هـذه الدنيـا خمسـين دقيقـة حتـى وصلـت المركـز، وكاظم لا يتعـب مـن ضيوفـه، لا يكل ولا يمل مـن إكرامهم: «يـا جاري هذا العشـق، يحرق ولا يحترق، تركوني وحدي ومشوا وما حاسب حسابي» غـادرت حين فرض علي العالم الحقيقي التزاماتـه، وصلت قبل أن أملّ من كاظم، لا بد من لقاء قريب معه!

نزلـت مـن السـيارة، وتجاهلـت النظـر إلى نـور، لمحتـه عاقـدًا حاجبيـه وقدمـاه تمشـيان بخطـوات متثاقلة كأنهـما تأبيان عليه السـير، فأزحت عيني عنه حتى لا أشـاهد المزيد مـن التفاصيل المزعجة. لم أرد لـشيء أن يقلـل عزمـي أو يحبطنـي، لم أرد أن أغـير رأيـي أو أن أتردد.

سلمته إلى معلمته على البوابة، وغادرت وهو يلاحقني بنظراته وصراخه. قررت أن أتركه يخوض التجربة وحده، أن يتعود البكاء والضحك دون أن أكون موجودة حوله دائمًا، هذا أفضل له لكي يتعلم ويستقل في حياته. شجعني على هذا القرار الثقة التي ملأتني نحو هذا المكان والارتياح تجاه الأشخاص الجدد الذين دخلوا حياته. عدت إلى السيارة، بوابة العالم الآخر، حيث قطعت وعدًا بلقاء آخر مع كاظم، وفيت به طوال طريق العودة إلى البيت! دخلت غرفتي واستلقيت، نمت بهدوء طفل صغير بين أحضان أمه. رجعت بعد الظهر إلى المركز لآخذ نور، استقبلني عند الباب مترددًا، كأنه يريد أن يبقى هنا، فذهلت! هل أعجبه المكان إلى هذا الحد؟ أم هي إحدى مفاجآته؟ شيء يفعله مرة واحدة فيثير به استغرابي ويفتح في ذهني أبواب الأسئلة، ثم يتركني حائرة، مستفَزة، تائهة، يائسة، مغلوبة على أمري، مثلما فعل ذلك اليوم لمّا أشار إلي مودعًا: «باي».

***

خرجنا إلى المركز ولم نرجع إلى البيت مباشرة كما اعتدنا، بل ذهبنا إلى مختبرِ التحاليل، وبعده دكتور الأذن. حماسي دفعني لعمل الفحوصات التي طلبوها مني بأسرع وقت، وزاد اشتعالَه ذهني المشغولُ بانبهار نور بالمركز من أول يوم إلى الدرجة التي جعلته لا يريد مغادرته، لم يفعل نور هذا سابقًا! تمنيت ألا أكون موهومة، وماذا بوسعي غير التمني على

أيـة حال! لم أرَ أمامي من حيلة سـوى مراقبة رد فعلـه في الأيام القادمة لأعرف السبب.

عدنـا إلى البيـت. حمّمت نور بالماء السـاخن، وحضّرت له العشـاء، أكلـت معه لما أخبرني خالد أنه سـيتأخر في العمـل. كان نور هادئًا لكنه رفـض الدخول إلى فراشـه. فكرت في نشـاط يسـليني في تلـك الليلة، قررت أن أشـاهد فيلمًا، لكن ما السبيل إلى ذلك ونور مستقيظ! أخشى عليـه، لا بد أن تبقى عيني عليه طوال الوقت. جمعت الكثير من ألعابه، فرشتها على الأرض أمامه، ووضعت له الكثير من الفوشار، ثم جلبت اللابتوب إلى غرفته، وجلسـت أشـاهد الفيلم بجانبه، رفعت الصوت إلى أقصى ارتفاع حتى ينسـجم ويبقى سـعيدًا. مـضى الوقت وتذكرت أن غيـث طلـب منـي أن أمـلأ نموذجًا أعطاني إيـاه، جلبته مـن الغرفة وبـدأت في الإجابـة على الأسـئلة. كان نموذجًـا مثيرًا للاهتمام، يشـبه العـلاج الوظيفي نفسـه، يسـأل أسـئلة تبدو مبعثـرة، لكـن بينها خيط غامض لم أعرفه وقتها. العجيب أنه يحوي الكثير من السـلوكيات التي يفعلهـا نور ولا تبدو مبرَرة، هل معنى هـذا أن العلاج الوظيفي يعرف مفتاح هذه السـلوكيات؟ إحسـاسي بالأمل وأنا أملـؤه جعلني أتجاهل صعوبـة مصطلحاتـه وأبحـث عنها بنفـس راضية على غوغل. أسـئلة كثـيرة أثارت اسـتغرابي لكـن واحدًا منهـا صدمني للغايـة «هل يدوخ كالأطفـال الآخريـن؟» نور لا يـدوخ، يتحـرك كثيرًا بعنـف، ويدور، ولا أحس أنه يـدوخ. شـككت كثـيرًا في ملاحظتي هذه، حتـى ظننتها

غير حقيقية، مجرد وهم، هذا الاستبيان يسأل عنها، هل معنى هذا أنه أمر مألوف عند الأطفال المشخصين بالتوحد! قررت أن أسأل غيث عن هذا الأمر في اليوم التالي، لكن أردت قبلها أن أعرف ما هو هذا النموذج السحري، فبحثت عنه ووجدته استبيانًا مُقننًا لتقييم القدرات الحسية، حدثني عنها غيث في الاجتماع ولم أفهمها، سأسأله عنها أيضًا!

أكملت مشاهدة الفيلم ونمت للصباح بعد أن نام نور.

***

في اليوم التالي أوصلت نور إلى المركز في الصباح، وطلبت من ميرقت الحديث مع غيث. سألته عما جال في ذهني في الليلة السابقة، رد علي: «هذه ملاحظات قيمة، لكن نور ما يزال في مرحلة التقييم، لذلك فإن أية إجابة الآن ستكون متسرعة، الأفضل أن ننتظر الاجتماع القادم» صحيح أنني سمعت كلامًا يشبه هذا قبل ذلك لكنني كنت مطمئنة هذه المرة؛ لشعوري السابق بالارتياح، ولأن الاجتماع له موعد واضح، وقريب أيضًا.

قررت - قبل العودة للبيت - الذهاب إلى المختبر وعيادة الطبيب لأخذ نتائج الفحوصات. مررت على مختبر التحاليل - القريب من المركز - أخذت تقرير فحص الدم، ونظرت في الورقة لأقرأ الأرقام. لم تنتظر موظفة الاستقبال سؤالي، بل قالت مباشرة:

- الحمد لله، الفحوصات جيدة، لا تحتاجين لعمل شيء.

- الحمد لله.

خرجت مسرعة نحو دكتور الأذن، عيادته بعيدة عن المركز، في مصر الجديدة، لمّا سألت معارفي عن دكتور جيد دلّوني عليه، لم تهمني المسافة، ولا سـعر استشارته المرتفع، فكرت فقط بدقة نتائجه التي أخبروني بها. أردت ألا أحس أن بمقدروي عمل شيء لنور ولم أفعله. كيف يتصرف النـاس - الذين لا تسـعفهم قدراتهـم المالية - مع أبنائهـم؟ الحمد لله. أظهر فحص السـمع أن قدرات نور طبيعية. سـلمت النتائج لميرڤت في اليوم التالي، وغادرت مثل كل يوم.

مـضى يومـان والحال كما هـو، أزور المركـز لأوصل نـور المتحمس للذهـاب، وأعـود لأخـذه غضبـان لا يريد المغـادرة. في اليـوم الثالث صحوت عند الظهيرة على شخير خالد، فعرفت أن الجمعة قد جاء!

(٧)

انقـضى الأسـبوع الأول ونـور يتعلـق بالمركـز أكثر وأكثـر، يصحو مـن النوم نشـيطًا، وينهـض عن سريـره دون مفاوضات، بـل ويحاول أن يسـاعدني في تبديل ثيابه، فيرفع يـده للأعلى حين أخلع عنه قميصه، ويمـد قدمه ليسـهل علي إدخال البنطـال فيها، يفعل ذلـك ببدائية، هو في الحقيقـة يعطلني، ولكـن محاولته تكفيني وتدخـل في قلبي السرور، لا تعلّم بلا محاولات، الإنسـان يصبح خبيرًا بعد أن يبدأ سـاذجًا. ننزل مـن البيت فيجـري أمامي على السـلم، ويصعد السـيارة بلمح البصر! أصبح يغادر البيت دون طائراته. فضولي وصل السـماء، من الضروري أن أعـرف السر في هذا المكان، ماذا شـده هنـاك؟ قررتُ أن أحضر معه يومًـا دراسـيًا كامـلًا، دون أن يعرف لكي أراقبه عـلى طبيعته وهو يظن أنني لسـت موجودة قربه. أبلغتُ السـكرتيرة برغبتـي، فرحبتْ بها بلا مماطلة ولا أعذار، أخبرتني أن بإمكاني الحضور في اليوم نفسه إذا شئت، فوافقتُ مباشرةً، فلا يوجد لدي ما يشغلني. أوهمت نور أنني مغادرة، ثم لحقت به بعد أن صعد إلى فصله. رأيته في وسـط خمسـة أطفال بدوا قريبين من عمره، جلسـوا متململين في أحضـان المعلمتَين، اللتَين بدأتا بالغناء والترحيب بهم واحدًا واحدًا:

«If you happy and you know it, clap your hands, if you happy and you know it, clap your hands. If you happy and

you know it, and you really want to show it, if you happy and you know it clap your hands…»

«Good morning to you, good morning to you, good morning to Nour, good morning to you.»

عرفت أسماء الأولاد من الأغنية: أحمد، وهاجر، ودهب، وشون، ومينا. انتهت الفقرة الصباحية سريعًا، لم تتجاوز نصف الساعة، وأخذت دينا الأطفال - واحدًا واحدًا - إلى الحائط حيث عُلقَت أعمدة عمودية من الورق المقوى، عليها صور تصطف من الأعلى إلى الأسفل كالكتابة الهيروغليفية على جدران معابد الأقصر. أول صورة من الأعلى - في كل عمود - هي للطفل نفسه وعليها اسمه، ثم تأتي تحتها مجموعة من الصور الخاصة بالأنشطة التي سيقوم بها بالترتيب خلال اليوم. عمود الصور بمثابة الجدول الدراسي للطالب. بالنسبة إلى نور كانت الأنشطة كالتالي: الفطور، الموسيقى، العناية بالذات، الحديقة، العلاج الوظيفي، التدريب الفردي، الغداء، النطق، الفنون، الرياضة، العناية بالذات. أمسكت دينا يده لتشير بإبهامه على صورة الإفطار وهي تقول: «الآن الإفطار» فهمتُ أنها تعلِمه بذلك ببدء وقت الأكل، وقد أصبتُ، فقد جلس يأكل - بمساعدتها - الساندوتش الذي أرسلتُه معه، وشرب عصيره. جاءت الأستاذة كريستين وأخذت بيده نحو الحائط وسحبت بها صورة الإفطار: «انتهينا من الإفطار»، ثم أشارت بيده إلى صورة الموسيقى: «الآن عندك موسيقى» صعدت به إلى الطابق العلوي، دخل متحمسًا، بدا أنه يعرف ما يريد بالضبط

إذ توجه مباشرة إلى سلة مليئة بالأدوات الصغيرة، وتناول منها العصا وجسمًا خشبيًا صلبًا لم أعرف ما هو بالضبط، وأخذ يضربها به، ويقهقه. لم تحاول كريستين أن تصححه، أو تعطيه أية تعليمات، صفقتْ له، ورقصتْ معه، ثم تناولتِ الدف، وضربتْ عليه بشكل لم أفهمه، لكنه منظم ورقيق على أذني، ونور يتحرك جيئة وذهابًا ويضحك، عندما تتوقف - فيما بدا لي أحيانًا أنها متعمدة - يذهب نحوها كأنه يقول: «المزيد» دون أن يحاول أن يضرب بنفسه على الدف. انتهى نصف الساعة بسرعة، فنزلتْ به إلى الفصل، وأخذتْ يده كما فعلتْ أول مرة نحو صورة الموسيقى، وأنزلتها من مكانها: «انتهينا من الموسيقى» ثم ذهبتْ نحو شون وأخذته إلى الأعلى كما فعلت مع نور بالضبط.

قامت دينا وأخذت نور من كريستين، وأشارت بيده على الصورة التالية: «الآن عندك عناية بالذات» حاولتْ خلع حذائه ثم إلباسه إياه. لم تطلب منه الجلوس، بل تركته يتحرك كما شاء ولاحقته من مكان إلى آخر داخل الفصل، كلما يطمئن إليها تمسك يده وتقوم بجزء من النشاط بيده هو، وتقول ما تفعل بالضبط بكلمات بسيطة: «نفك الرباط، نضع قدمًا على الأخرى، نضع يدنا أسفل الحذاء، ندفع الحذاء» وتصفق بعد نجاح كل خطوة، وتكافئه ببضع حبات من الفوشار. هكذا إلى أن انتهى نصف الساعة الآخر، فذهبتْ به إلى الحائط ليسحب صورة النشاط الذي أنهاه.

جاء دور الحديقة، أخذت المدرستان كل الأولاد نحو الحائط،

وأشـارتا بأيديهما إلى صورة الحديقة: «سنذهب إلى الحديقة» نزلوا جميعًا تحـت إشرافهـما، وتاهوا في الحديقة الواسـعة، عـلى الترامبولين، وفوق الدراجـة، وأسـفل الزحاليـق الضخمة، وبين العشـب، منهـم من آثر الجلوس والاسـترخاء على الأرض. نور جديـد، لا يعرف أيًا من هذا، لذلك كانت منال تقدم إليه الأنشطة المتعددة ليختار منها بحسب رغبته دون توجيـه، بـدا مغرمًا بالترامبولين، وقضى عليـه معظم وقته، انتهت السـاعة وكان رافضًـا النزول مـن عليه، إلى أن خضع أخـيرًا، وعاد مع الأطفال إلى الفصل.

دقائـق معـدودة حتـى جاء الأسـتاذ غيـث، رآه نور فركـض نحوه وأمسـك بيده، ليس نور وحده من فعل هذا بـل الأطفال كلهم تقريبًا، توجهـوا نحوه كمن يقول له: «خذني أنا أرجـوك» حينها لم أعرف ماذا لدى غيث حتى يـترك الأطفال ما بأيديهم ويجرون نحوه! هل هو جزء مـن الـسر الآسر في هذا المكان؟ أخذ غيث نور إلى الحائط: «الآن علاج وظيفي» سـبق نور غيث نحـو صالة العلاج الوظيفـي، ودخل مسرعًا نحـو أرجوحة مربعة خشـبية معلقة في وسـطها، لحقـه غيث، وخلع له حذائـه، ثم أجلسـه على الأرجوحـة وأخذ يدفعـه، ويلفه بقـوة، ونور يضحك ويخطف نحو غيث نظرات ممتنة بين الحين والآخر. نزل وألقى بنفسه على الأرض، فجاء غيث باسطوانة كبيرة ووضعها على ظهر نور وبدأ بتحريكها مثلما يحرك الخباز اسـطوانته الخشبية على رغيف العجين ليفـرده، ونور مبتسـم وعيونه تلمع بفرح، كلـما توقف غيث طالعه نور بنصف نظرة جانبية ملأى بالأسـى تعني: «لا تتوقف» فيتابع. اسـتمرا

هكـذا لدقائـق، حتى قام نور وأخذ يروح ويجـيء في الصالة بلا معنى، وغيـث يلاحقه ويعرض عليه الأنشـطة المختلفة: بازل، كرة، معجون، خرز... أو يوجهه نحو الزحليقة، أو السلم الخشبي المعلق على الحائط، أو المراجيح المصطفة ليختار منها. أعجب نور بمشـابك خشبية صغيرة مثبتـة على لوح ورق مقوى، أخذ ينتشـها واحدًا واحـدًا - من مكانها، ويثبتهـا ثـواني في يده، ثـم يلقي بها بقوة عـلى الطاولة الخشـبية. لم أفهم شـيئًا من مشـاعر نور أو اهتماماته، مسـألة الفهم حينهـا كانت أكبر من اسـتيعابي، أدركـت هذا وسـلمت له حتى قبـل مجيئي للمركـز، لذلك لم أفكـر كثـيرًا بهذا الشـأن، أردت بحضـوري أن أراقبه فقـط في المكان الجديـد. ما اختلف بعد مجيئـي هنا أنني تيقنت أنهم محترفون في التعامل مـع نـور ويعرفـون تمامًا لماذا هو سـعيد. في هـذه الدنيا مَـن يفهم نور! هل سـأفهمه؟ بالتأكيد سـيخبرونني تدريجيًا. لم أسـتطع مقاومة رجوع الفكـرة إلى خاطـري، مع أنها تلاشـت منـه، عودتها كانت أشـبه بعودة ميـت إلى الحياة. رأيُـت غيث يخـرج تلفونه، ويشـغل التوقيت: «خمس دقائق وسـنخرج من الصالة»، وأخذ يذكّر نور كل دقيقة. انتهى نصف الساعة، ورن المنبه: «انتهينا يا نور، هيا بنا سنخرج» غضب نور ورفض الخـروج، ركض إلى الداخل نحو الأرجوحة مـرة أخرى كأنه يودعها، لكـن هذه المـرة أوقفه غيـث: «انتهينا يـا عزيزي، سـنعود إلى الفصل» خرج نـور غاضبًا، وألقى بنفسـه أمـام صالة العـلاج الوظيفي، وأخذ بالـصراخ والبـكاء، فجاءت تالا عـلى صوته، وفي يدهـا صندوق كبير مليء بالألعـاب، ومجموعة من الكروت، تناولتْ واحدًا منها مقسـومًا

إلى صفين، على اليمين صورة علاج وظيفي وفوقها كلمة «الآن»، وعلى اليسار صورة الفصل تعلوها كلمة «التالي»، سحبتْ صورة العلاج الوظيفي: «انتهينا من العلاج الوظيفي، والآن سنعود إلى الفصل» ونور يرد عليها بالصراخ، فتنتهز فترات سكوته المؤقتة وتتناول الألعاب والفوشار، وتضعها أمامه، حتى سلّم واختار منها المشابك، أول مرة أعرف أن نور يحب المشابك. قام نحو الفصل وفي يده طائرة ومشبكَان وحفنة كبيرة من الفوشار. أمسك غيث بيده نحو الحائط: «انتهينا من العلاج الوظيفي، الآن تدريب فردي».

استقبلته منال، وفي يدها ألوان خشبية وأوراق ومقصات بلاستيكية، كان - على غير عادته - هادئًا لا يتحرك كثيرًا، وتركيزه أفضل! وضعتْ أمامه الأوراق وأخذت ترسم، وتكتب، وتلون، وتقص، وتطلب منه مساعدتها، أو تمسك يده - كلما أبدى استعداده - لتعمل بها جزءًا من النشاط. لم تتوقف عن الكلام: «أحمر، أزرق، أُلون، أقص، أثني الورقة، مربع...» وتعطيه الفوشار كلما أنجز معها شيئًا ولو بسيطًا. انتهى نصف الساعة وجاء موعد الغداء. قام الأولاد - بالطريقة نفسها - نحو الحائط، ثم إلى حقائبهم لإحضار أكلهم، وتوجهوا به نحو المطبخ. أكلوا، وغسلوا أيديهم، ثم عادوا إلى الفصل.

جاء غيث، وأخذ مينا بعد معاناة التخلص من زملائه الذين تشبثوا به يريدون الذهاب معه، ومن بينهم نور نفسه. غريب أمره، لم يغادر العلاج الوظيفي إلا قبل نصف ساعة ويريد العودة إليه، هناك سحر ما

في هذه الصالة، سيتكشّف لي مع الأيام. جاءت كريستين ولمى وضياء إلى الفصل، كل يريد أحدًا من الأطفال، فيأخذه إلى الحائط ليرى الجدول المرئي لأنشطته ويشير على التالي منها. نور ميعاده القادم مع نادين، التي جاءت ونزلت به ساخطًا إلى غرفة النطق. المكان صغير مليء بالألعاب والكروت والمجسمات، يتحرك نور فيه ولا يرى ما يعجبه. أعرف أنه لا يحب الأنشطة التعليمية، وليس مهتمًا بالجلوس والنظر المنهج إلى الأشياء، ولم أدرك إذا كان هذا جزء من التوحد، أم هو طبيعته الشخصية! تركته نادين يتحرك كما يشاء، وأخذت تلقي أمامه بالأشياء وتنطقها: «تفاحة، دب، بيتزا، أشرب، يلعب ...» ونور يمسك أشياء أخرى، ويلعب بها بطريقته التي يشاء، ألقى مجسم السيارة ضاحكًا على الحائط، وأمسك كرتًا مرسومًا عليه فتاة، لم يلتفت إليها بل ثبت عيونه على وردة زرقاء على طرف قبعتها. انتهى نصف الساعة ورجع نور إلى الفصل، وجد الأستاذ ضياء بانتظاره، فغادر معه إلى غرفة الفنون بعد أن رأى جدوله المعلق على الحائط. وضع ضياء مفرشًا على الطاولة، ملأ طرفه بالأوراق الكبيرة، وسكب الألوان المائية على طرفه الآخر. انطلق نور مسرعًا نحو الطاولة المدهشة، وقضى نصف الساعة يضع يديه وقدميه على الألوان ويطبعها على الأوراق، أو يحاول ذلك على الحائط فيعترضه ضياء. في لحظة استطاع أن يخدعه، استغل انشغاله بكتابة ملاحظة ما وصفع الحائط بيده الملونة، وضحك كالمنتصر! لم يبدِ ضياء أية ردة فعل، تجاهل فعله كأنه لم يحدث، وتابع اللعب معه حتى

انقـضى الوقـت. عاد به إلى الفصـل، وأخبره - كما يفعلـون كلهم - أنه أنهى الفنون.

رأيـت أن القـادم في جـدول نـور «رياضـة». تأخر الكابتـن محمود لدقائـق قبل أن يصل ويأخذ نور إلى صالة كبيرة في طرف الحديقة. كان نور سـعيدًا برؤية محمود، ولم أسـتغرب هذا فهو يحب الرياضة والحركة كثيرًا. أثناء الجلسـة، فعل محمود مثل سـابقيه، لم يوجه نور للعبة معينة، بـل بـدأ هو باللعـب وجعل نور يراقبـه، ويأتي إليـه إذا أعجبه شيء ما. رمـى أمامـه كرات القـدم والسـلة، وحمـل الأوزان، ودفـع العجلات الكبـيرة، ورمى الحلقـات في الأقماع، وقفز فوق الحواجز، ومشـى على لـوح التوازن، وتشـقلب، وقفز في حلقـات متتابعة. كان نـور ينظر إلى الأشـياء التـي يلعب بهـا محمود وهو يـروح ويجيء في الصالـة، فيتقدم أحيانًـا، ويبتعد أخرى، أو يتركه ويركـض إلى الاتجاه الآخر بلا هدف. انقضت نصف سـاعة أخرى سريعًا، وأوشـك اليوم على الانتهاء. عاد نـور إلى الفصـل، لم يبقَ عـلى الجدول المعلـق على الحائط سـوى «عناية بالـذات» أخذتـه منال إلى الحمام، غسـلت شـعره، ومشـطته، ونظفت أسـنانه، ورتبت أغراضه، جهزته للمغادرة. ولم تنقضِ الدقائق العشرة التالية حتى كان بيدي آخذه إلى السيارة غاضبًا لا يريد المغادرة.

تيقنـت أن نـور قضى يومًا جميلًا في المركـز، اطمأننت عليه، وعرفت سر - أو أسرار - سـعادته؛ يوفـر له هذا المـكان الموارد الكافية ليركض

ويتأرجـح ويلـون ويعمل الأشـياء التـي يحبها دون توجيـه صريح من الأخصائيين، هو يحس أنه يقود الجلسة. لم أطق صبرًا على انتهاء أسبوعَي التقييـم، أردت أن أفهـم ما رأيته، أعرف أنه يحب هذه الأشـياء، لكنني أردت أن أعرف لماذا يحبها؟ ماذا تفعل بجسـمه وبروحه فتجعله مقبلًا عليها لا يريد تركها؟ في هذا اليوم شيء واحد مرهق، وهو المسافة التي نقطعهـا كل يـوم إلى المركز ذهابًا وإيابًا. لم أعرف ماذا سـأفعل لأتعامل معها، فكرة الانتقال للعيش في المعادي ألحت علي، هل سيتقبلها خالد؟

---

(٨)

الإجازات الطويلة تفسد النوم. حين كنت طفلة في المدرسة تعودت أن أنام متعبة بحلول العاشرة؛ لأنني سأستيقظ في اليوم التالي باكرًا، وأقضي ساعات منتبهة للدروس. عندما تأتي الإجازة الصيفية - وهي طويلة تمتد لثلاثة شهور - تبدأ العاشرة بالتحول إلى الحادية عشرة، ثم الثانية عشرة، ثم ساعات الفجر. في فترة انتظام نور في المركز لم أحتج أن أستيقظ بكامل انتباهي، فلا دروس عندي ولا عمل ولا مسؤوليات أخرى، كل ما أفعله هو أن أستيقظ مع نور لأجهزه وأوصله إلى المركز، وأعود منه فأنام مباشرة حتى الظهر؛ لذلك لا أشعر بالنعاس قبل الثالثة فجرًا. لم أستيقظ على صوت رنين هاتفي في إحدى تلك الصباحات المحذوفة من حياتي. صحوت ظهرًا كالمعتاد، ووجدت مكالمتين فائتتين من المركز، قلقت على نور، قلت لنفسي إن شيئًا ما حصل معه جعلهم يحاولون الاتصال بي. كلمتهم فورًا، قالوا لي إنهم أرادوا تحديد موعد الاجتماع الثاني في الغد، لكن نظرًا لعدم قدرتهم على التواصل معي فقد أجلوه يومين آخرين في حال ناسبني ذلك. شعرت بالأسف؛ لأنني أنتظر هذا اللقاء منذ مدة، هم قالوا إنها أسبوعين لكنني أحسستها سنتين. حاولت مع ميرفت أن تبقيه في الغد كما تقرر له بادئ الأمر، كدت أتوسل لها وألح عليها كالمتسولين، لكنها اعتذرت، بررت أن الأخصائيين حجزوا مواعيد أخرى في الغد! ليس أمامي سوى الانتظار

ليومـين آخرين. لو كنت أعلم قيمة ما حدث في يوم الاجتماع، لو كنت أعلم أنه نقطة تحول في علاقتي بنور، لو كنت أعلم أنني سـأفهم بسـببه كثـيرًا مـن تصرفات نور وكيـف أتعامل معه، لو كنت أعلـم أنني بعده سأسـأل نفسي: «لماذا؟» وأنا مرتاحة غير يائسـة من إمكانية الإجابة، لو كنت أعلم كل هذا لما نمت ليلتها على الإطلاق!

***

كان يومًـا صحوًا، شمسـه لطيفة. جلسـنا على الطاولة نفسـها التي شـهدت اجتماعنـا الأول. حـضر الأخصائيـون كلهم، عرفتهـم جميعًا بسـهولة، في الفترة الماضية لم يكن عندي شـاغل سـوى التقرب منهم، أقصـد افتراضيًـا. تصفحـت ملفاتهم الشـخصية على مواقـع التواصل الاجتماعي كلها، درست شخصياتهم، وطالعت صورهم ومنشوراتهم، عرفـت ماذا يحبـون وماذا يكرهـون، عرفت كيف يتصرفـون، كل هذا لأتخيـل كيف يتعاملون مع نور. لم أنطـق بكلمة، أردت أن نبدأ دون أن تؤخرنا تحية أو كلمة جانبية. تحدث طارق وهو يعطيني كتابًا عرفت منه أن فيـه كلامهم الذي سـيقولونه مكتوبًا، ناولنـي إياه لكي أتابع معهم، وليبقى معي إذ ربما احتاجه لاحقًا:

- انتهت عملية التقييم بشقيها: قابلناك أول مرة وأخذنا المعلومات اللازمة؛ ثم لاحظنا نور الأسبوعين الماضيين. ساعدَنا التقييم في تكوين صـورة كاملة عن نـور، وضعنا - بنـاءً عليها - خطة المرحلـة القادمة. نحن هنا اليوم لنخبرك بنتائج التقييم، والأهداف التي سـنعمل عليها. سـيتكلم الأخصائيون واحدًا واحدًا معك كما فعلنا في الاجتماع الأول. تفضلي يا أستاذة أمل.

فتحت أمل عيونها على ملف أمامها تطالعه بسرعة:

- فـترة الملاحظـة تتميز بأنها غـير منظمة، بمعنى أن الأنشـطة التي يفعلهـا الطفـل غير مرتبة بشـكل صـارم. هـذا طبيعي لأننـا لا نعرف الأطفال جيدًا، فلا نفرض عليهم عمل أشياء قد لا تعجبهم. بالإضافة إلى أننا أشخاص جدد عليهم، في مكان جديد أيضًا، وهو ما قد يشعرهم بالرهبة، ويؤثر سلبًا على نتائج التقييم. نحن نبني علاقة مع الطفل حتى يحبنا ويظهر لنا قدراته كلها.

هززت رأسي بامتنان، فتابعتْ:

- نـور الجميـل ذكـي، قدراتـه عاليـة، نتوقع منـه القـدرة على قول الكلـمات البسـيطة في البداية، لذلـك لن نبدأ معه برنامـج PECS، كما نفعـل مـع كثير مـن الأطفـال الآخريـن. هـذا البرنامـج -إذا كنت لا تعرفينه- هو نظام تواصل بالصور.

- لكني رأيت نور بالفعل يسحب صورًا عن الحائط!

- نعـم، هذا شيء آخـر. لا يطلب نور حاجته عن طريقه مثلما يفعل في PECS، بل نحن نشير إلى أنشطته أو حاجاته، كي يسمع ويرى. من المعلوم لنا أن حاسة البصر مهمة للأطفال المشخصين باضطراب طيف التوحد. هل الفرق واضح الآن؟

- نعم.

- حسنًا. أهدافنا للمرحلة القادمة:

أولًا: اتبـاع تعليـمات بسـيطة، مـن خطوة واحـدة. سيشـمل هذا: «اقعد» أو «قف» أو «افتح الباب».

ثانيًا: التعرف على عناصر بيئية. سنبدأ بالطائرات، والفوشار، والفلفل؛ لأنه يحبهم ومهتم بالتعامل معهم كثيرًا.

ثالثًا: إدراك معنى بعض الأسئلة الاجتماعية، وهي: «ما اسمك؟»، «ما اسم أمك؟»، «من هو نور؟» سيساعدنا هذا على تدريبه على الإجابة عليها في المرحلة القادمة.

رابعًا: التقليد اللفظي لمقاطع صوتية بسيطة: «ماما»، «دادا»، «بابا». وهو ما سيساعدنا على توظيفها في وقتها.

خامسًا: التقليد الحركي. سيقلدنا نور عندما نصفق، ونلوح «باي»، ونرفع أيدينا إلى الأعلى. هذا مهم للتواصل غير اللفظي.

سادسًا: التعرف على أفعال: «آكل»، «أشرب»، «أنام»

نظرت أمل إلي وأنا أسمع كلامها وأقرؤه من الكتاب الذي بين يدي، بدا أنها تريد أن تعرف إذا كان كلامها مفهومًا لدي، فابتسمتُ لها وأنا أكتم دموعي:

- هل سيفعل نور هذا؟

- هذه الأهداف مأخوذة من برنامج اسمه VB-MAPP، وهو برنامج مقنن يساعد على تنمية السلوك اللفظي. نور في المرحلة التي تسبق هذه الأهداف، هو جاهز لتعلم هذا. سيساعدنا أن السمع جيد، عدم التفاته إلى كلامنا سببه ضعف الانتباه، وعدم الرغبة في التواصل. هل تريدين إضافة أهداف أخرى؟ أو عندكِ أسئلة على ما سبق قبل أن ننتقل إلى التالي؟

- كلا. الأهداف رائعة ومفهومة.

ابتسمت أمل وتابعت:

- خـلال فترة التأهيل سـنقوم ببعـض الأمور هنا، نتمنـى منك أن تأخذيهـا باعتبـارك خـلال تواصلـك معـه، وإذا أمكـن تعميمهـا على الأشـخاص الآخرين الذيـن يتواصلون مع نور لكي يقومـوا بها أيضًا فهذا رائع للغاية.

هـزت رأسي بامتنـان وتفهـم، فتابعـتْ وهـي ترسـل عيونها على ملاحظات ملونة في ملفها:

- لن نضغط على نور بطلب الكلام منه، لا داعي لقول: «قل كذا». سـنتحدث معه في سـياق اللعب، وإذا قال شـيئًا - من نفسه - سنعززه بشـكل كبير بالتصفيق والفوشـار وكل الأشـياء التي يحبها، حتى يربط فعل الكلام بالمكافأة ويتشجع لتكراره.

صمتـت تنتظـر رد فعـلي عـلى كلامها الـذي كنت أدونه عـلى ورقة أعطوني إياها:

- حسنًا، سأفعل ذلك.

- نور يقول بعض الكلمات بشـكل غير وظيفي، بمعنى أنها ليسـت في وقتها، الآن يقول: «ما» يقصد بها ماء، عندما يقولها نريد أن نوظفها، يتـم ذلك بأكثر من طريقة كأن نقـول وراءه: «ماء»، أو نجلب له كوب مـاء، أو نضع بجانب الكلمة كلمات أخـرى ذات صلة بها أو بالطلب، مثـل: «ماء بارد»، «أريد مـاء»، «أشربُ ماء»، «كوب ماء» وهكذا. هل هذه النقطة واضحة لك؟

قلـت: «نعم» خرجت مني سريعـة كأن عقلي يقول لها: «أرجوك أن تكملي.» كلامها مهم جدًا بالنسـبة لي. أسـمعها فأتخيل نور يفعل ذلك، أبتسم ولا أقاوم دموعي، فأمسحها كل دقيقة، وأهز رأسي بأن تسرع في كلامها، لعلها تضيف المزيد والمزيد. فأكملتْ:

– وآخـر شيء هـو العمل على اللغة الاسـتقبالية، نريـد أن نزيد من حصيلة الكلمات التي يفهمها نور، لذلك سنكلمه ونحاول وصف كل شيء يحدث حولنا بكلمات بسيطة. في الطريق للمركز سنشير إلى شجرة أو عصفور أو بيت، أي شيء، ونقول اسمه. عند الغداء سنذكر الأشياء التي أمامه: لحمة، ملعقة، بطاطس، صحن. كما سـنذكر بعض الأفعال بصيغة المتكلم، «آكل فوشار، ألبس البنطلون، أسلم على ماما» وهكذا.

لم أتمالـك نفسي فوقفت وبكيت وأنا أقول: «حسـنًا، مفهوم، رائع» تركنـي الأخصائيـون لدقائـق أنتهـي فيها مـن انفعالي، لم ينـادني أحد، تركـوني أرجـع وحـدي، عـدت إلى الطاولـة واعتـذرت. بـدا لي أنني سمعت طارق يقول:

– لا بأس، سيتحسن نور إن شاء الله.

رأيتـه ينظر إلى غيث كأنـه يقول له: «ابدأ» غيث! جـاء دور العلاج الوظيفي. أنا مهتمة به لأسـباب أحسـها ولا أفهمها. أحسست أن عليّ أن أكـون بكامـل تركيزي أثنـاء الحديث معه، وهو ما لسـت عليه الآن تمامًـا، فطلبت كوب ماء حتى أأجل الكلام ولـو للحظات. جاء كوب الماء بسرعة، فشربته على مهلٍ، وابتسمت لغيث:

– تفضل يا أستاذ.

- رأينا نور الفترة الماضية، والتي عملنا فيها على جعله يحبنا ويرتبط بالمكان، هذا أول هدف لنا قبل التقييم أو العمل على الخطة التأهيلية؛ لأن الطفل إذا أحب المكان سينمو بداخله دافع ذاتي للمشاركة بالأنشطة، وبالتالي التطور. وكما سمعتِ من الأستاذة أمل - وستسمعين من الأساتذة بعدي - فالدافع أولويتنا ومفتاح نجاحنا.

هززت رأسي متفهمة ومؤيدة بشكل كامل، فتابع غيث:

- أما بالنسبة لنتائج التقييم - بما يشمل فترة الملاحظة، والمقابلة الأولى، والنموذج الذي ملأتِه - فنور يحتاج تركيزًا كبيرًا على قدراته الحسية. عرفت من الاجتماع الماضي معك أنك غير مطلعة على معنى المعالجة الحسية، لذلك سأشرحها لك بالتفصيل.

- تفضل!

- يتعامل الإنسان مع البيئة بحواسه، هي حلقة الوصل بينه وبين كل شيء حوله. تستقبل كل حاسة المعلومات الخاصة بها، وترسلها إلى الجهاز العصبي المركزي، الذي يقوم بتفسيرها واستيعابها، وهذه هي المعالجة الحسية. ما يحصل عند الأطفال الذين لديهم تحديات في المعالجة الحسية أن هذا التفسير - في الجهاز العصبي المركزي - يكون على غير حقيقته، بمعنى أن يفسر المؤثرات الحسية بأكبر مما هي عليه، أو أقل. سأضرب لك مثالًا توضيحيًا عن حاسة السمع نقيس عليه الحواس الأخرى: كلنا جالسون هنا نسمع الأصوات نفسها، ولا تزعجنا، لو أن أحدنا لديه تحدٍ في المعالجة السمعية فقد ينزعج منها إذا كان يفسرها

بأكثـر من حجمها؛ وقد يفرح ويركز معها كأنه يريد المزيد منها إذا كان يفسرها بأقل من حقيقتها. هل هذا مفهوم إلى الآن؟

- نعم.

- هذا التحدي سـينتج عنه سـلوك مـا، في المثال السـابق إذا انزعج الطفـل سـيحاول أن يمنع الصـوت، بأن يضع يديه عـلى أذنيه أو يبكي أو يغـادر المكان، بحسـب خبرتـه. وإذا عالج الأصـوات فوصلت إليه قليلـة سـيبحث عن المزيـد منها، قد يـصرخ أو يرفع صـوت التلفاز أو يضرب الأشـياء ببعضها، وهكذا! لأن وصول مدخلات حسـية كافية - لا تزيـد ولا تنقـص - من كل حاسـة هـو شيء ضروري للإنسـان، وليس اختياريًا، إذا اختل سيواجه هذا الشخص تحديًا حقيقيًا.

كان غيـث يتابـع ملامحي ليقـرأ منها إن كنـت أسـتوعب كلامه أم أواجـه صعوبة. عرف أنـه يقول كلامًا ربما أسـمعه لأول مرة، من نوع الـكلام المتين الذي يحتاج مقدمـة وتوضيحًا وطريقـة بنائية في الشرح، لذلـك كان يهز رأسـه بعـد كل معلومة كأنه يسـألني: «مفهوم؟»، فأهز برأسي بالمثل كأنني أقول: «نعم» فيتابع:

- مشـكلة المعالجـة الحسـية تؤثـر على واحـدة أو أكثر مـن الحواس السبعة. خمسة من الحواس معروفة للكل، هناك أيضًا حاستان داخليتان أخريـان: الأولى اسـمها الحاسـة الدهليزيـة، والثانيـة حاسـة المفاصل والعضـلات. الحاسـة الدهليزيـة هـي المسـؤولة عـن إعطاء الإنسـان معلومـات عـن وضعـه في الفـراغ وقربـه مـن الأرض، هي المسـؤولة

عن التوازن ووضعية الجسد وتحديد خطر السقوط. حاسة المفاصل والعضلات هي المسؤولة عن إحساس الإنسان الكافي بكل جزء في جسمه. الحديث عنهما عادة يكون واحدًا، لارتباطهما ببعضهما بشكل كبير. إذا زاد تفسير مدخلاتهما في الجهاز العصبي المركزي سينتج عن هذا قلة في الحركة بسبب الخوف الزائد من السقوط أو الاصطدام، وإذا نقص سينتج عن هذا حركة زائدة بسبب البحث عن المزيد من الإحساس بالجسم وبمكانه في الفراغ.

دونت كل كلمة وراء غيث، خصوصًا بعد أن أحسست أن نور يفعل بعض الأمور التي ذكرها، الآن جاء لي أحدهم يشرح لي -بشكل علمي- لماذا. كنت سعيدة، سعيدة جدًا! أحسست أنني أقترب من نور بسرعة لا أصدقها، ولم أحلم بها. تلهفت على أن أكمل سماعه، بالتأكيد يملك الحلول، هو لن يقول أسباب المشكلة ويصمت! أردت حلوله هذه، فكنت أكتب وأركز وأعيد القراءة وأستعجله بالمتابعة. هززت رأسي ليكمل:

- يتناول العلاج الوظيفي أكثر من جانب، إعطاؤنا الأولوية للحسي منها له مبرران؛ أولهما أنه شائع لدى الأطفال المشخصين باضطرابات اجتماعية. أجرينا دراسة منشورة أثبتت أن ٩٨٪ من الأطفال المشخصين باضطراب طيف التوحد في مصر لديهم تحدٍ في المعالجة الحسية لحاسة واحدة على الأقل. وثانيهما لأن الجانب الحسي يؤثر على كل الجوانب الأخرى. انظري من فضلك إلى هذا الهرم في

الكتاب أمامك. قالها وهو يشير لي على مثلث مكون من طبقات أفقية دعاه «الهرم التعليمي.» وبدأ بالشرح:

– هذا الهرم مكون من طبقات، كل واحدة تؤسس للتي فوقها، لو حصل تحدٍ في إحداها ستتأثر هي وما يعلوها. في قاع الهرم هناك المعالجة الحسية، تؤثر على ما فوقها، وهم بالترتيب: القدرات الجسدية، والقدرات الإدراكية، والقدرات العقلية، والقدرات السلوكية. وقد أثبتت دراسات كثيرة تأثيرًا مباشرًا للمشكلات الحسية على: الانتباه، والعضلات الكبيرة والدقيقة، والنوم، والتحصيل الأكاديمي، والسلوك، والانفعالات؛ بالإضافة إلى ما يتبع ذلك من مشكلات نفسية واجتماعية، كقلة الثقة بالنفس والإحباط والعزلة وغيرها.

بدأت أشعر بذلك الخيط الغامض الذي يمسكه غيث فيجعله قادرًا على فهم نور، اسمه «اضطراب المعالجة الحسية.» لم أفهمه تمامًا فأنا لست مختصة، لكنني أدركت أهمية العلاج الوظيفي لنور، بدا لي أنني سأتعامل مع هذا الغيث كثيرًا. أوشكت أن أسأله عن حال نور بعد سنوات، هل ستبقى مشكلاته ترافقه؟ هل ستؤثر على مدرسته لاحقًا؟ لكن لم أسمح لخيالي بالجموح إلى المستقبل، فكبحته بأن هززت رأسي، فأكمل غيث:

– المعالجة الحسية السليمة ليست أمرًا اختياريًا، هي كالأكل والشرب، إذا لم نقدم لنور أنشطة صحيحة تساعده عليها، سيتصرف

هو بطريقته وبخبرته القليلة، وهذا سيؤدي لسلوكيات خاطئة سأذكر لك بعضها حين يحين أوانها.

– وكيف نتصرف؟ ماذا نفعل لنساعده؟ أقصد كيف تتطور المعالجة الحسية؟

– حسنًا، قبل أن أذكر ذلك سأشرح لك التحديات التي تواجه نور بشكل خاص. كلامنا السابق ألقى الضوء على المشكلات الحسية بشكل عام. أظهرت فترة الملاحظة أن نور يواجه حساسية ناقصة لمدخلات الحاسة الدهليزية، وحاسة المفاصل والعضلات، وحاسة التذوق. وهو ما أكدته نتائج استبيان المعالجة الحسية الذي قمتِ بملئه. الاستبيان أظهر أيضًا حساسية ناقصة لمدخلات حاسة السمع، وهو ما لم يظهر في الملاحظة، لذلك سيبقى تحت التقييم بهذا الشأن.

– لهذا يتحرك كثيرًا، ويتذوق الأشياء في فمه!

– بالضبط، ولهذا يضغط على الأشياء بفمه، تذكري أن الفك مفاصل وعضلات أيضًا. وربما يضرب الأشياء بالحائط ليسمع صوتها.

– نعم.

– وضع الأشياء في الفم قد يكون مرتبطًا بمشكلات طبية، مثل نقص الحديد، لكنه ليس السبب عند نور، فتحاليل الدم التي قام بها جيدة.

أخذ غيث نفسًا عميقًا، بدا أنه هو أيضًا أرهق من عرض المعلومات، وأكمل:

- كما أنه يواجه تحديًا في حاسة اللمس التي تستقبل الإحساس بشكل يفوق حقيقته، ربما رأيتِ أنه يتجنب اللمس، أو يكره الذهاب للحلاق، أو قص أظافره مثلًا.

- نعم، نواجه مشكلة كبيرة عند الحلاق ووقت قص الأظافر.

أجبت وأنا مذهولة، كمن يتكلم تحت أثر الصدمة. فهمت نور! عرفت لماذا يفعل هذا، فهمت ما يريد. هل أنا في حلم أم في علم؟ تمالكت نفسي، واستجمعت تركيزي، لم أرد أن أفوت شيئًا من هذا الكلام المهم. ماذا بعد أن بدأت أفهم؟ علي أن أعي تمامًا كيف ألبي له احتياجه هذا. لم يمهلني غيث أن أسأل، تابع كلامه يشرح التعامل الصحيح مع التحديات الحسية:

- إذا ثبت احتياج حاسة ما لمزيد من المدخلات فيجب أن نشبعه. نور يحتاج الحركة والضغط على المفاصل، سنوفرهما له على شكل أنشطة وظيفية مثل: القفز، والحبو، والتسلق، ودفع الأشياء، وسحبها، وحملها، وأنشطة مختلفة على أدوات متحركة مثل الأراجيح. كما يحتاج سماع الأصوات، وهو ما سنوفره بأشكال مختلفة مثل سماع الموسيقى، ومسلسلات الأطفال، واستخدام خلفيات الأصوات وقت تعليمه. أما بالنسبة لحاسة اللمس، التي يواجه فيها تحديًا معكوسًا، وهو الحساسية الزائدة؛ فسنقوم بتعريضه للملامس المختلفة بشكل تدريجي بطيء ممنهج، كلما تقبله أكثر أعطيناه المزيد منه. هذا الكلام الفضفاض كتبناه أهدافًا تفصيلية محددة، وقابلة للقياس، وقابلة للتحقيق، وواقعية،

ومحددة بزمن، وهو الشهور الستة القادمة. لكن علينا ألا ننسى أن هذه الأهداف - وإن بدت في ظاهرها حركية - جوهرها حسي، سنرى أثره على ما ذكرنا سابقًا من تركيز وسلوك.

- رائع، وما هي الأهداف؟

- استعنا ببرنامج PDMS-2 لوضع الأهداف، وهو برنامج يقيم المهارات الحركية الكبيرة والدقيقة. أهدافنا الفترة القادمة ستكون -كما هي موضحة أمامك في الكتاب- أن يتعلم القفز المتتابع، وأن يستخدم قدميه في الهواء ليحرك الأرجوحة، وأن يصعد السلم الخشبي المعلق، وأن يستخدم يديه ليدفع الأرض ويحرك الأرجوحة الكبيرة وهو مستلق على بطنه، وأن يرمي كرة على هدف وهو جالس فوق الأرجوحة العريضة، وأن يمسك العقلة ويثني قدميه عن الأرض، وأن يعثر على العملات المعدنية داخل صندوق مملوء بالأرز، وأن يفرغ بالكأس صندوقًا مملوءًا بالماء. سيشارك بالأنشطة وهو يستمع إلى موسيقى صاخبة، أو أصوات بيئية مسجلة، كصوت الرياح والمياه والشجر والأطفال.

صمت قليلًا، ثم تابع:

- إذا كان لديك أية أسئلة تفضلي.

- هل تنتهي المشكلة الحسية، أم ترافق الطفل طوال العمر؟

- يتم السيطرة عليها ما دام يشبِع احتياجاته الحسية حتى تصل إلى درجة لا تؤثر على وظائفه ومهامه. لكن حتى لو أحسسنا أنها انتهت

- خصوصًا في عمر مبكر - فلا ينبغي أن ننخدع بظننا، ولا بد أن نتابع بأنشطة مماثلة لوقت طويل.

هز غيث رأسه وبادلته الإيماءة كالمعتاد، فأكمل كلامه:

- نظرًا للأهمية التي ذكرتها للمعالجة الحسية، وأثرها على الجوانب الأخرى؛ فلن يتم التعامل معها فقط داخل صالة العلاج الوظيفي، عممت أهدافنا على الأقسام الأخرى كلها؛ الرياضة والسلوك والنطق والفنون والموسيقى. كما قمت بعمل جدول «استراحة حسية»، بحيث يقوم نور بأنشطة حركية لمدة عشر دقائق كل ساعة، في أي مكان يتواجد فيه، وشرحت هذه الأنشطة لفريق العمل وخصوصًا المدرسات. سأشرحه لك لاحقًا حتى يعمل ما تسنى منها في البيت، لكن أريد منك أن ترسلي معه بعض الأطعمة المقرمشة، والناشفة، وذات المذاقات القوية، مثل: الجزر، واللحمة، الفلفل، والشطة، والليمون، والملح، والخبز المقرمش، أو غيرها مما يخطر لك. سنجرب بها هدفًا حسيًا، وهو تقليل سلوك وضع الأشياء في الفم، وسنخبرك بالنتائج. كما أريد أن تشتري فرشاة خاصة بالمساج، سأرسل صورتها لك، هذه ستساعد على تقليل حساسية حاسة اللمس.

شكرت غيث، كدت أقول له «لا أسئلة لدي»، لكنه فاجأني عندما تذكر طلبي له قبل الاجتماع بأيام لأسأله عن شيء في خاطري. قال لي:

- قبل أيام أردتِ سؤالي عن شيء ما، ما هو؟

عصرت ذهني حتى استخرجت السؤال بصعوبة! قلت له:

- مكتوب في الاستبيان ما معناه إذا كان الطفل يشعر بالدوار أم لا. هل لهذا علاقة بالمشكلات الحسية؟

- بالتأكيد، الأطفال الذين يعانون من تفسير أقل لمدخلات الحاسة الدهليزية لا يشعرون بالدوار بالقدر الكافي.

شكرت غيث مرة أخرى، وشعرت أنني أحتاج استراحة طويلة بعد هذا الكم الهائل من المعلومات. فقدت تركيزي، لكنني كنت سعيدة بما فهمته عن نور، تفاءلت بتحسنه والقدرة على السيطرة على تحدياته رغم الغصة التي أشعر بها لعدم وجود خالد معي ليسمع هذا الكلام المهم. أحببت المكان أكثر، رأيت فيه الأمل، ورجوت منه الدعم، وقفت أمام بابه كما يقف الشحاذ أمام الغريب يطلب منه المساعدة حتى لو تذلل. استأذنت منهم، وذهبت إلى الحمام لأطلق دمعات محبوسة!

مرت عشر دقائق قبل أن أعود إلى الاجتماع. وجدت الجميع جالسين في أماكنهم يتبادلون أطراف أحاديث بدت ودية. تحدث ضياء على الفور، خلت أنه تكلم بسرعة حتى لا تطول جلستنا، خصوصًا بعد الوقت الذي استغرقه غيث:

- أظنك عرفت من زميلي غيث الأهميةَ الحسية لتعامل نور مع الألوان المائية، هي ليست فقط مرحلة أولى للرسم، بل يحتاجها نور لتطوير حاسة اللمس، إذ يستخدم يديه وقدميه حين يلون. سيكون هذا أول هدف لنا. الأهداف الأخرى المتعلقة بالمهارات هي: أن يقدر نور على تقليد شكل بسيط - من عنصر واحد - بالألوان المائية كأن يطبع

يده أو قدمه أو إصبعه على الورقة كما أفعل، وأن يلون بالألوان الخشبية داخل شكل كبير، كالمثلث أو الدائرة، في البداية سنحيط هذا الشكل بالصلصال حتى يصطدم به القلم وهو خارج من حدوده فيمنعه؛ وأن يستطيع نور تمييز ثلاثة ألوان أساسية: الأزرق والأخضر والأصفر، وأن يجلبها حين أطلبها منه، وأن يستطيع أن يكمل رسمًا بدائيًا لشخص ينقصه قدم أو يد أو رأس. هل تحبين إضافة أهداف أخرى؟ أو لديك أية أسئلة على هذا؟

- كلا، مهارات رائعة أتمنى أن يتقنها.

انطلق صوت طارق:

- تفضلي يا أستاذة كريستين.

انتقلت عيوني إلى الجانب الآخر من الطاولة. لم تضيّع كريستين الوقت أيضًا، فعاجلتني بكلامها:

- الهدف الذي سنعمل عليه الفترة القادمة هو أن يتعرف نور على مفهوم السلم الموسيقي: «دو، رى، مي، فا، صول، لا، سي، دو» سنستخدم عدة آلات، وسنركز على الأورغ نظرًا لسهولته. من أجل هدفنا سنلصق على كل مفتاح فيه ورقة بلون خاص به، يختلف عن المفاتيح الأخرى، فالدو أصفر، والرى أحمر، والمي أزرق، وهكذا... وذلك حتى يربط نور النغمة باللون في البداية. لدينا أدوات أخرى غير الأورغ تحمل الألوان نفسها التي سنضعها على الأورغ، كالأجراس، كل جرس له لون يدل على نغمته، ومتوافق مع ألوان الكروت، سنضرب

الجرس الأصفر ليعطينا دو، والأحمر ليصدر صوت رى... الخ. ومن الأدوات الملونة الأخرى سجاد صغير، سنستخدمها في المرحلة التالية من الأنشطة في أهداف تتعلق بالتآزر السمعي الحركي، كأن يقفز على السجادة الخضراء حين نقرع الجرس الأخضر الخاص بفا.

كنت سعيدة وأنا أتخيل نور يفعل ذلك، بلغت أقصى توقعاتي -خصوصًا بعد تجربة المركز الأول- أن يشرح لي أحدهم تحديات نور، وها أنا الآن أقف أمام فريق يريد أن يعلمه الرسم والموسيقى والرياضة، أنا محظوظة بهذا المركز بلا شك! شكرت كريستين، ونظرت نحو منال -المتحدث القادم- لما ذكر طارق اسمها. تلعثمت منال قليلًا كأنها احتارت من أين تبدأ، وسرعان ما قالت:

- نعمل في الفصل على جانبين، هما المهارات الأكاديمية والاستقلالية. أهدافنا الأكاديمية هي أن يتواصل نور بصريًا معنا ثلاث ثوانٍ، وأن يكمل البازل المكون من قطعة واحدة، وأن يدرك معنى رأسي ويدي، وأن يميز القطة والكلب من بين مجموعة من الحيوانات، وأن يميز المربع والدائرة من بين الأشكال الأخرى.

وقعت كلمة «يميز» في أذني عدة مرات خلال الاجتماع، لم أسأل عنها سابقًا لكن لكثرة ما سمعتها - هي أو مرادفات أخرى لها مثل «يدرك» - أحسست أنني لا أريد أن أفهمها بشكل خاطىء، فرأيت أن أسأل عنها، قاطعتُ منال:

- عذرًا، ماذا تقصدين بيميز؟ هل سيقول اسم الشيء؟ أم ماذا؟

- كلا، ليست التسمية ما قصدت، بل أن يعطيني صورة للشيء

المستهدَف أو يشير عليه بيده، أو حتى ينظر إليه. أية إشارة توحي أنه فهم ما أريد.

- حسنًا.

- وأن يطابق صورة التفاحة مع مجسمها، وأن يأخذ شيئًا يريده من بين مجموعة أشياء تقدَم له، وأن يحرك السيارة بشكل صحيح، وأن ينظم الخرز الكبير داخل الخيط، وأن يبني المكعبات بشكل صحيح، وأن يقلد حركة بسيطة كأن يفتح فمه، وأن يميز حرف «A» من بين مجموعة من الأحرف، وأن يميز صور أفراد أسرته، وأن يميز الأرقام ١-٣.

كانت منال تتكلم بهدوء، صوتها بالكاد يسمع. رأيت صورها على الإنستغرام، تبدو من وقفتها كطالبة خجولة في الإعدادية، حتى إنها تتجنب النظر في الكاميرا مباشرة. أكملت كلامها:

- هل لديك أية استفسارات تخص الجانب الأكاديمي؟

- كلا، واضح ورائع.

ابتسمت منال، وتابعت:

- بالنسبة للمهارات الاستقلالية، أو مهارات العناية بالذات، فإننا نستخدم برنامج AFLS لتقييمها، ووضع الأهداف الخاصة بها. أهدافنا هي أن يستغني عن الحفاظات، وأن يخلع التيشيرت والبنطلون والحذاء، وأن يمسح أنفه بالمنديل، وأن يتعرف على السكين كأداة للقطع. هل هذا مناسب؟

- نعم يا حبيبتي. هل السكين آمنة؟
- بالطبع، سنستخدم واحدة بلاستيكية يقطع بها الصلصال.
وتابعت:

- من أجل أن نعمل على هدف تمييز أفراد الأسرة نحتاج منك صورة لك ولوالده ولجدته ولخالته. بالنسبة للحفاظات سنستغني عنها هنا، لن يلبسها نور في المركز، البديل هو أن نعمل جدولًا له بحيث تدخله المعلمة إلى الحمام كل نصف ساعة، وتنتظره دقائق حتى ينتهي سواءً فعل أم لا، أقصد ليس بالضرورة أن يكون محتاجًا للحمام وقتها، تدريجيًا سنزيد الوقت إلى أن يستغني عن الجدول. قبل أن يذهب إلى الحمام سنشير بيده نحو صورة الحمام لكي يعرف إلى أين هو ذاهب، ولكي يربط بين هذا الفعل والحمام. المتوقع منه أن يحتاج وقتًا ليتأقلم مع ذلك، حتى يحين هذا الوقت سنحتاج منك أن ترسلي معه ملابس كثيرة ليبدلها كلما احتاج.

- حسنًا، سأرسل لك ما طلبت.

تكلم محمود دون أن يناديه خالد. رغم أن الجميع بدا مستعجلًا -فقد تجاوزنا الساعة المخصصة للاجتماع- إلا أنهم كانوا يوضحون لي الأهداف، ويتأكدون أنني فهمت، لم يختصر أحد أي شيء من كلامه:

- تلقينا توصيات العلاج الوظيفي، وسنعمل عليها، كما سنضيف إليها الأهداف التالية -أغلبها من البرنامج نفسه PDMS-2: أن يستطيع نور أن يقف على قدم واحدة لثانيتين، وأن يمشي على لوح التوازن دون

أن يسـقط، وأن يرمي الكرة على هدف يبعد عنه نصف متر، وأن يلقف كـرة سـلة رميت إليـه، وأن يركل كـرة القـدم بالاتجـاه الصحيح، وأن يـضرب كرة التنس بالمـضرب، وأن يقفز فوق حاجز صغير، وأن يجري لينقل كرة إلى الصندوق. هل تريدين إضافة أهداف أخرى؟

- في الحقيقة أفكر في استخدام الدراجة، هل هذا ممكن الآن؟

- سـيحتاج وقتًـا لتمريـن مثـل هذا، لكن مـن الممكـن أن نبدأ معه بالجلوس عليها، ثم استخدام البدالات.

- حسنًا، هذا جميل.

انتهى محمود من كلامه، بقيت تالا. لاحظت للمرة الثانية أنها تحضر الاجتـماع بملـف كبير، بـدت لي منظمـة للغاية، وتسـجل كل ما يفعله الأطفـال بدقة. تالا مثـيرة للاهتمام، أكثر ما لفت نظـري فيها هو تباين شـخصيتها الحقيقيـة عـن العملية. رأيـت صورها على الفيسـبوك على الشـواطئ وفي المطاعم أو الديسكوهات، منفتحة بملابسها وسلوكها، وأحيانًا مجنونة! وحين أجلس أمامها هناك بوقارها ونظارتها السـميكة وكلامها الهـادئ المباشر أحس أنني أمام وزيـرة الخارجية مثلًا. أبديت اهتمامًـا بالغًا بكلامهـا المرة الماضيـة، وانتظرت دورها هـذه المرة، فهي تتعامل مع جانب مهم من حياة نور. أردت اسـتراحة لكي أبقى مركزة قبـل حديثهـا، لكنني خجلت أن أطلبها فهـم متأخرون بدونها. نظرت إليها فقالت:

- سأتكلم عن السلوك بشكل عام، ثم نخصص هذا الكلام على ما يفعله نور. كل السـلوكيات التي يقوم بها الإنسان لها أسباب، حصرها علم تعديل السلوك بأربعة، سأضرب لك مثالًا عن طفل يضرب رأسه بالحائط وأشرحها من خلاله.

- حسنًا.

- السـبب الأول هـو لفت الانتباه، بمعنى أن الطفل يضرب رأسـه بالحائـط ليقول: «أنا موجود، تواصلوا معـي.» تخيلي رد فعل من حوله وهو يفعل ذلك، سـيقومون إليه، يمنعونه، أو يحتضنونه، أو يزجرونه، سيُسـمعونه عبارات مختلفة: «لا تفعل ذلك، حبيبي سـتؤذي نفسـك! أنـت بخير؟» أيًا كان نوع العبارة- تعاطـف أو ردع- فقد حقق الطفل غرضـه، وهـو التواصـل معه، وقمنـا نحن بتعزيـز هذا السـلوك عنده بإجابتـه كل مرة حتى يصبح عادة عنده؛ إذا أراد التواصل معنا يضرب رأسـه بالحائط. رد فعل النـاس طبيعي وتلقائي، يفعلونـه دون تفكير، لكنـه خاطئ، فالأفضل في هـذه الحالة تجاهل السـلوك حتى لا يتكرر، مع مراعاة أن يكون الطفل آمنًا طبعًا.

صمتت تالا لحظة، فقلت لها:

- مفهوم، أحس أنني جربت شـيئًا كهذا. نور ينظر إلي - كأنه ينتظر مني اسـتجابة ما - حين يلقي بالألعاب أو يعض على الملابس. حسـنًا، حسنًا، ما هو السبب الثاني؟

- الهروب! نطلب من الطفل شيئًا، فيضرب رأسه بالحائط، فننشغل به، ثم قد نفعل ما طلبنا منه بأنفسنا. إذا تكرر الأمر سيصبح عادة؛ كلما

طُلب منه شيء يضرب رأسه بالحائط فيفعله شخص آخر. لذلك لا ينبغي تعزيز هذا السلوك عنده، فإذا طلبنا منه أن يفعل شيئًا وضرب رأسه بالحائط رفضًا، سنتأكد من سلامته كما قلنا، ثم نطلب منه الشيء نفسه حتى يفعله، ويدرك أن ضرب رأسه بالحائط لن يعفيه من إجابة الأمر.

لم أعلق على كلامها، كان مفهومًا، فتابعت بسرعة:

- السبب الثالث هو احتياجه لشيء ما، مثل أكل أو لعبة، فيستخدم هذا السلوك ليطلبه. حينها سنفعل الشيء نفسه، لن نعطيه ما يريد بهذه الطريقة من الطلب حتى لا نعززها. أما الرابع فهو حسي، بمعنى أن يضرب رأسه بالحائط كي يشعر به مثلًا، وقد شرح لك الأستاذ غيث هذا. هل وظائف السلوك مفهومة لك؟

- نعم.

- حسنًا، الآن جاء وقت سلوكيات نور. ذكرتِ أنه يلقي بالأشياء، وأنه يضع الملابس في فمه، وبعدها ينتظر استجابة منك، أو من أي أحد غيرك. هذان سلوكان يجذب بهما انتباهكِ، سأضيف عليهما سحب شعر الأشخاص، وضرب يده بالحائط، وعض يده، وإصدار أصوات عالية، وهي كلها يفعلها لنفس الغرض. كيف سنتعامل معها؟

- كيف؟

- هنا في المركز قمنا بتحضير أوراق نجمع فيها معلومات عن تكرار حدوث هذه السلوكيات، سنحسب في اليوم كم مرة يلقي بالأشياء،

أو يضـع ملابسًـا في فمـه، أو يسـحب شـعر أحدهـم، أو يـضرب يده بالحائـط، أو يعـض يـده. كما سنسـجل كل يوم المـدة التي يصـدر فيها أصواتًا، سنستخدم المؤقت لذلك. سنفعل هذا لمدة أسبوعين، ثم سنبدأ بتطبيق الخطة الخاصة بنا مع استمرار أخذ هذه البيانات، وذلك لنعرف فعالية البرنامج الذي وضعناه، وبناءً عليه نغيره أو نتركه كما هو. بمعنى أن السلوكيات هذه إذا قلّت بشكل كبير بعد تطبيق البرنامج فهذا يعني أنـه فعال وسنسـتمر عليـه، أما إذا قلّت بشـكل قليـل أو بقيت كما هي فسنغير بعضًا من تفاصيل الخطة. هل هذا واضح؟

– نعم، ولكن ما هو البرنامج؟

– البرنامج مكون من ثلاثة أجزاء: التجاهل، والاستبدال، وإعطاء الانتباه المسبق. التجاهل هو عدم الالتفات لأي من هذه السلوكيات عند حدوثها، كأنها لم تحدث. والاسـتبدال هو محاولة تعليم الطفل التواصل ولفت الانتباه بطريقة مناسـبة، في البداية سـنعلمه أن يقول: «مرحبًا.» هذه الخطوة لا تأتي بعد السلوك مباشرة، بل سنطبقها بأكثر من طريقة، كالتمثيـل، يـأتي أخصائـي يقـول لآخـر مرحبًا فـيرد عليـه الأخصائي الآخـر، يراهما نـور فيتعلم أن كلمة مرحبًا مناسـبة لبـدء الكلام. ومن الطـرق الأخرى القصـص، نحكي له قصصًا عن أساسـيات التواصل نسـتخدم فيها كلمة مرحبًا. هذه الأسـاليب مهمة لتبنـي في ذهنه كيف نجذب الانتباه ونتواصل بالشـكل الصحيح. سنعززها كثيرًا في البداية حتـى يحـب تكرارها وتصبح عـادة، بمعنى أنه إذا قال مرحبًا سـنعطيه

كمية كبيرة من الفوشــار، أو ســنهديه طائرة جديــدة، وهكذا. هل هذا واضح؟

- نعم.

- وأخيرًا الاهتمام المسـبق، كلما نرى نور سنحضنه ونكلمه ونلاعبه ونعطيه أشياء يحبها دون سبب، عندها سيكتفي من الاهتمام، ولن يطلبه بطريقة لا نريدها. هذه الأشـياء الثلاثة هي ما سـتفعلينها في البيت، ثم نخبر من يتعامل مع نور عنها لكي يطبقها أيضًا.

صمتت تالا لحظات، ثم قالت:

- هــذه ســلوكيات حســية - في الأصــل - قد تــم تعزيزها ســابقًا، فانتهــى غرضهــا الحسي، لكنهــا بســبب التعزيز تحولت إلى ســلوكيات لجذب الانتباه. العض مثلًا، تعلمه نور بشــكل ما ثم أعجبه لأنه يعطيه إحساسًــا بمفاصــل فمــه ويده، هــذا في البدايــة، لكنه لاحقًــا أدرك أنه ســلوك يلفــت نظر من حوله. انتهت المشــكلة الحســية أو تعلم ســلوكًا آخر يعوض فيه هذا الإحســاس الذي يحتاجه، لكن أصبح لدينا وظيفة جديدة لهذا السلوك الذي بدأ حسيًا، وهي جلب الانتباه. لماذا أقول لك هذه المعلومة؟ لكي لا تعززوا أي ســلوك حــسي جديد يظهر عند نور. هل هذا واضح؟

- نعم، واضح.

- حســنًا، أنــا انتهيــت من شرح برنامجــي، إذا كان لديك أية أســئلة تفضلي بطرحها.

– كلا، في الحقيقة أحس أنني أحتاج المزيد من الوقت حتى أستوعب كمية هذه المعلومات الجديدة.

– لا عليـك، خـذي وقتـك، وإذا أردتِ الاستفسـار عـن أي شيء تواصـلي معنا فورًا. آخـر ملاحظة مهمة لدي هـي بخصوص التعزيز، قمنـا بعمـل اختبار عرفنا من خلاله أكثر خمسـة أشـياء يحبها نور، لكي نسـتخدمها كمعـززات، وقد كانت كالتـالي بالترتيـب: الذهاب لغرفة العـلاج الوظيفـي، اللعـب بالطائـرات، الفوشـار، البطاطـس المقليـة الحارة، والحلوى.

كنت أعرف أن نور يحب الطائرات، والفوشـار، والبطاطس المقلية الحارة، والحلوى، ولم أتفاجأ بمسألة العلاج الوظيفي، فقد رأيت تعلقه بغيـث حين يدخـل الفصل، ورفضه الشـديد مغـادرة الصالـة. عندما شرح غيث لي موضوع اضطراب المعالجة الحسـية عرفت أن ارتباط نور بالعـلاج الوظيفي أكبر من كونـه حبًا، هو احتياج لا يوفره له أي مكان آخر.

٢٤ أغسطس ٢٠٢٢، لم أنسَ ذلك التاريخ، يوم فهمت نور!

صمتت تالا لحظات، ثم تابعت:

– هل لديكِ أية استفسارات؟

– كلا، شكرًا جزيلًا!

– العفو!

قام الأخصائيون كل إلى وجهته، وبقي طارق الذي قال لي:

- سنرسل مع نور دفتر تواصل، نكتب فيه كل ما يفعله يوميًا. إذا أخذ جلسة علاج نطق - مثلًا - ستجدين في خانة النطق تفاصيل الجلسة، وهكذا. وسيرسل لك فيه كل قسم - أسبوعيا - هدفًا تركزين عليه في البيت قدر الإمكان، مثلًا إذا رأى أخصائي الرياضة أنه يحتاج أن يتدرب على القفز وقتًا أطول سيكتب لك في دفتر التواصل أن تحاولي تطبيق ذلك معه. ستستخدمين هذا الدفتر أيضًا إذا رغبت بإرسال ملاحظة سريعة لنا، فيه جزء خاص بملاحظاتك تنظر إليه المدرسات كل صباح، وإذا احتجتِ اجتماعًا أو مكالمة تلفونية مع أي أحد من الأخصائيين للاستفهام عن أمرما فهذا مرحب به دائمًا، فقط اتصلي على ميرفت ونسقي معها. وأخيرًا سنرسل لك فيديو أسبوعيًا من كل قسم، فيه جزء من جلسة لتشاهدي نور - كأنك معه - وهو يتعلم شيئًا جديدًا. اجتماعنا القادم المشابه لهذا سيتحدد في فترة ما بين الشهور الخمسة أو الستة القادمة، سنناقش فيه التطور الذي طرأ على نور، ونضع أهدافًا جديدة للفترة التي تتبعه.

- هذا رائع للغاية.

قلتها مرة لطارق وخرجت، لكنني رددتها في نفسي مرات كثيرة: «هذا رائع للغاية.» سأحكي لخالد كل شيء حصل في هذا الاجتماع، سأعرّف خالد على نور بعد أن عرفته أخيرًا!

---

(٩)

أوشـك أغسطس على الانتهاء، بدأت القاهرة تتنفس بعد أن أنهكها الحر الذي عانته في الشـهور الثلاثة الماضية، واندفق الناس في شرايينها فعـادت إليها البهجة. القاهـرة في يوليو مثل حبة فاكهـة قديمة، رطبة، لونهـا قاتـم، ومذاقها أقل حلاوة. في آخر جمعة من أغسـطس أصبحت القاهـرة طازجـة! لم يبـدُ لي يومها أن خالد مشـغول، فقد اسـتيقظ بعد الظهـر عـلى غير عادتـه. في ذلك الوقـت كان نور يعيش أفضـل أيامه، أحسست أنه بدأ ينظر إلى الأشياء أكثر من السابق، أخيرًا أقر بوجودها! قلّت حركته أيضًا، غيث أكد لي أنها إشـارة جيدة على تحسـنه. كل شيء حولي أشعرني أنه يوم مناسب للخروج.

- خالد، ما رأيك بقضاء اليوم في النادي؟

- حسنًا، سأتناول الفطور، ونخرج.

ارتدى خالد بدلة رمادية أنيقة، وتجهز. السـنون السبعة التي عشتها معه أغنتني عن سؤاله لماذا يرتدي بدلته في نزهة إلى النادي. هو لا ينسى أنه رجل أعمال، يحصي كل الأرقام التي تمر عليه في حياته، الكيلومترات المقطوعـة، والأمـوال المصروفـة، والأوقات التي يقضيهـا في عمل أي شيء. لـو عـاش حياة أخرى ربـما يكون آلة حاسـبة! البدلة - بالنسـبة إليه - شكل اجتماعي لا يليق أن يظهر بغيره أمام الناس. ارتديت فستانًا

أصفـر طويلًا، وقبعة زرقاء، وخرجنا. النـادي ليس بعيدًا، بلغة خالد: أربعـة كيلومـترات عن المنـزل. جلس نور في المقعد الخلفـي هادئًا دون أن تبـدو عليـه علامات الانزعاج، وهو ما أكـد لي تمامًا أنه ميز الطريق، وأدرك أن هذه الشـوارع سـتفضي أخيرًا إلى النـادي الذي يعرفه ويحبه. كل الظـروف جعلتني أتوهم أنها نزهة مثالية. لم يكن بحسـباني الموقف الذي حصل يومها هناك وبقي أثره في نفسي لفترة طويلة!

دخلنا من البوابة الرئيسية، مررنا عبر المقاعد المترامية تحت الأشجار على الجانبين، انعطفنا يمينًا قليلًا، ومضينا على الأرض الحجرية الأنيقة. بعـد أن تجاوزنا المطاعم القابعة على يسـارنا أدار نور جسـده إلى اليمين نحو حمام السباحة، وضعت يدي على كتفه بلطف لأصحح مساره وأنا أقول له: «ليس الآن يا حبيبي، سـنذهب هناك حيث يلعب الأطفال.» مضينـا حتـى واجهتنـا منطقـة مبهجـة، مليئـة بالزحاليـق والأراجيح والكرات المترامية على أرضها المغطاة بسجادة خضراء. استسلم لرغبتي صامتًا، أعرف أنه يحب هذه الأنشطة، لكنه لا يرتاح في وجود الأطفال، لذلك يفضل حمام السـباحة حيث يحجز زاوية فيه، لا يكدر صفوه فيها أحد. تركته على الزحليقة وجلست مع أبيه على طاولة قريبة.

كانت الزحليقة أكثر انحدارًا عما أعرف، تقذف الطفل من الأعلى إلى الأسفل لتلقي به على كومة من الرمال. أعجبتْ نور جدًا، نزل من الأعلى أول مـرة بعد أن تركته فوقها، ثم عاد ليصعد سـلمها متجاهلًا الأولاد كلهم الواقفين في طابور غير رسمي، فيصادمهم كأنهم لا مرئيين. أحيانًا

كان يصعد من الأسفل إلى الأعلى على الزحليقة نفسها بدل السلم، وهو ما ضايق الأطفال أكثر. بدت علامات الانزعاج عليهم، أيّ ناظر إليهم سيعرف بسهولة أنهم مجموعة ساخطة، خمسة أولاد ينظرون إلى نور بين الحذر والشراسة؛ منهم من شبك يديه على صدره، ومنهم من وقف متحديًا كأنه يريد أن يهاجم. كان بينهم طفل صغير لا يزيد عمره عن ثلاثة أعوام، ترك المجموعة ومشى نحو امرأة ثلاثينية، قدرتُ أنها أمه: «أريد أن أتزحلق، هذا الطفل يضربني ويأخذ دوري.» تقدمت السيدة عاقدة حاجبيها نحو الأولاد، ركزت نظراتها على نور الذي كان يجري ويرفرف بيديه سعيدًا. لم تسأل ابنها أن يشير على الطفل الذي أزعجه، عرفته وحدها. نور مختلف، يتصرف بشكل مغاير عن الأطفال الذين في سنه، ويلفت نظر الآخرين، دائمًا ما تسألني عيونهم: «ما به ابنك؟» حتى أولئك الذين تفيض عيونهم بالشفقة يزعجونني. لا أريد لأحد أن يبدي أي شعور تجاه نور، حتى لو كان إيجابيًا. أريد فقط أن يمروا عليه مرور الكرام، كما يمرون على أي طفل آخر! قالت لابنها: «شكله أهبل!» ومضت. كتمتُ في داخلي صرخة: «نور ليس أهبل!» لست أنا التي تقف في مكان عام وتتشاجر مع الناس، لم أفعلها في حياتي، لكن أين حق ابني، لن أفرط فيه. ذهبت نحوها بسرعة، وقفت أمامها واضعة قبضتَي يدَي على خاصرتي، قلت لها وأنا أشعر بحرارة الدماء تتدفق في جسدي وأسمع نبض قلبي: «سأقاضيكِ».

***

عـدت إلى الطاولـة عنـد خالـد، الـذي كان جالسًـا يـشرب عصير الرمان: «أريد الذهاب إلى أمن النادي» من بين الكلام الكثير الذي رأيته في عيونه، لم أسـمع منه سـوى: «حسـنًا» ربما أراد الـكلام، لكن وجهي الغـارق بالدمـوع جعلـه يؤجلـه إلى حين آخـر. بدأت السـماء تمطر على اسـتحياء. أمسكت نور من يده، ومشيت به إلى مكتب الأمن. بدا خالد مجبرًا أكثر من نور! تكلم أخيرًا: «لا داعي للشـكوى، الأطفال يتعلمون مـن احتكاكهـم ببعضهـم، كما أنكِ لسـت موجـودة دائماً معه لتشـتكي عـلى كل مـن يضايقه» لم أرد عليه، فتابع معـي الطريق صامتًا. هل هناك جدوى من الرد! هل سأضيف إلى معلوماته شيئًا إذا قلت له: «نور ليس كالأطفال الآخرين. نور يحتاج إلى رعاية. نور يحتاج إلى من يأخذ حقه!»

***

وصلنا إلى مبنى حجري صغير بحجم الغرفة، ملقى عند بوابة بعيدة من بوابات النادي، لم أحس بطول الطريق إليه. اسـتقبلنا رجل في نهاية الأربعينيـات من عمره، بشـوش، ابتسـامته تملأ وجهه فتسـحب –من الجانبين– شـاربه المصبوغ باللون الأسـود، كأنها تمطّه فيبدو أعرض مما هو عليه، وقبعته كبيرة مائلة على جانب رأسـه الأيمن. بدا مهرجًا أكثر من كونه رجل أمن!

– تفضلا.

– أريـد أن أقـدم شـكوى عـلى سـيدة تنمـرت على ابني المشـخص بالتوحد، ووصفته «بالأهبل!»

- ماذا فعل ابنك لها لكي تصفه هكذا؟

- أقول لك ابني مشخص بالتوحد، لا يفعل شيئًا لها أو لغيرها.

- اعذريني يا مدام، لا أعرف ما هو التوحد، ولم يسبق لأحد أن اشتكى بسبب «تنمر». الناس تأتي إلينا حين يفقدون شيئًا في النادي: نظارة، مفاتيح. أو يطلبون منا -نادرًا- أن نفض مشاجرة بسيطة.

صمتّ. في رحلتي مع نور تعلمت أن أمنع سيل عدد لا نهائي من الجمل، وأكتفي بواحدة، لا جدوى من الشرح، لا جدوى من الانفعال. جملة واحدة تكفي: «أين مكتب مدير النادي؟»

خرجنا من مبنى الأمن. أحاطتنا الأشجار من كل جانب. أشجار الخريف بلا روح. لم أقابل أحدًا في الطريق، ربما مشى الناس حولي، لكنني لم أرَ أحدًا. الربيع قادم بلا شك. الحياة قادمة!

***

لم نجد صعوبة في التعرف على مبنى الإدارة، الأفخم في النادي. مبنى منفصل، بجانب البوابة الرئيسية، ذو طابقين من الحجر النظيف، يعلوهما مثلث قرميدي أحمر. دخلنا، لم ألتفت إلى روعة البلاط الأبيض الذي يزين الأرض إلا وأنا خارجة منه، ولم أنتبه إلى وجود السكرتيرة العشرينية الجميلة إلى أن قالت:

- تفضلوا.

- نود مقابلة مدير النادي.

- عذرًا، هل هناك ميعاد؟

ميعاد! هل يحتاج مدير النادي إلى ميعاد!

استشعرت السكرتيرة الغضب في صوتي، فقالت:

- كلا. يبدو الأمر طارئًا.

- ألا يقابل المدير الناس إلا بميعاد، أو لأمر طارئ! اعتبري الأمر طارئًا إذًا!

ابتسمت السكرتيرة، وقالت وهي تتوجه نحو باب خشبي ضخم على يسارها:

- حسنًا، دقائق معدودة.

كان خالد ينظر إلي بعطف كأنه يقول: «اهدأي قليلًا» لكنه لم يقل شيئًا. فهمت وحدي. سنوات الزواج تجعل المرأة تفهم زوجها دون أن يتكلم. الرجل سهل الفهم، حتى لو كان خالد، وحتى لو كنت غاضبة.

***

دخلنا إلى المكتب. وقف للترحيب بنا رجل خمسيني. ابتسم بأدب، وقال بصوت هادئ:

- تفضلا بالجلوس. كيف أخدمكم؟

- هذا نادٍ محترم، المبالغ الطائلة التي ندفعها -على الأقل- تخبرنا بذلك. لا أتوقع أن أسمع فيه امرأة تنعت ابني المشخص بالتوحد «أهبل». أتقدم بشكوى رسمية ضد هذه السيدة.

فتح الرجل مكتبه، وأخرج علبة سجائر. المكتب لا يوحي أنه مكان مخصص للتدخين، رائحته التي تشبه روائح محلات الورود تقول

ألا أحد أشعل فيه سيجارة واحدة منذ وجد! قال الرجل بأدب جم:

- هل تسمحان لي بالتدخين؟

- تفضل.

- ابنك كم عمره؟

- خمس سنوات.

- خمس سنوات. ابني مشخص بالتوحد أيضًا، عمره الآن سبعة عشر عامًا.

أشعل سيجارته. ثم تابع:

- قبل أكثر من عشر سنوات كنت في أحد المولات، أنا وأحمد -ابني- وحدنا. لم أكن أستطيع السيطرة عليه، كنت أتركه يركض بين الناس، يصعد السلم الكهربائي وينزل جاريًا. سمعت أحدهم يقول: «هذا الطفل متعِب، أين أهله! أيرمون أولادهم وسطنا ويغيبون!» وقفت أمام الرجل وابتسمت، ثم أخذت أحمد وتابعنا طريقنا. ابتسمت لأنني رجل مهذب، وهو قال ما قاله لأنه يتعامل مع الناس بهذا المستوى الأخلاقي. الكلام مرآة الأخلاق والفكر يا سيدتي.

ثم نظر إلي وأنا أبكي، وتابع كلامه:

- هذا الولد أمامه حياة طويلة، رعايته منوطة بك. يحتاج كل وقتك وأعصابك. لا تضيعيهما في إصلاح الناس حوله، بل وفريهما له. هذا المجتمع يا سيدتي ليس جميلاً. إذا حاولتِ إصلاحه ستتعبين دون جدوى! ولكن إذا أصررتي على الشكوى، فهو حقك.

رد خالد:

- شكرًا يا أستاذ. لا داعي للشكوى.

ابتسم الرجل، ووقف مودعًا بعد أن وقف خالد وأخذني لنخرج.

***

نظر إلي خالد طويلًا وهو يبتسم:

- هل هناك أحد يأتي ليقدم شكوى في شخص لا يعرف اسمه!

ضحكت بصوت عالٍ. ظللت أقهقه حتى خرجنا من البوابة الرئيسة نحو السيارة.

---

(١٠)

الأحد ٤ سبتمبر ٢٠٢٢

أصبح المركز جزءًا من الروتين اليومي لنور، ومن روتيني أنا أيضًا. أستيقظُ في السادسة والنصف، أحضر أغراض نور، ثم أوقظه وأبدل ملابسه، ونخرج من البيت عند الثامنة. ذلك اليوم حصل شيء غير عادي. سلمت نور إلى مدرّسته، فرحبت به: «أهلا يا نور» وأنا هممت بالخروج. لم أنتبه إلى أن اسم نور لفت نظر سيدة أربعينية جالسة في الاستقبال:

- آه، هل أنت والدة نور؟

أجبت بتلقائية:

- نعم أنا.

- ابني مينا يردد أسماء الأطفال معه في الفصل، يقول «نور» كثيرًا.

صافحتها وأنا أقول:

- أنت والدة مينا، أهلًا بك.

- فرصة سعيدة يا مدام. في الحقيقة تواصلت مع أمهات الأطفال زملاء مينا في الفصل، لكنني لم أجد رقمك في المجموعة.

- عذرًا، أي مجموعة؟

- مجموعة «أمهات حقيقيات» على الواتس أب. تضم الكثير من

أهالي الأطفال المشخصين بالتوحد. تقريبًا فيها كل الأهل هنا، وأهالي أطفال في مراكز أخرى.

ثم ضحكت وهي تتابع كلامها:

- مصر غرفة وصالة! هل تودين الانضمام للمجموعة؟

سيدة رقيقة هادئة تدعوني لمجتمع افتراضي لأهالي الأطفال المشخصين بالتوحد. أثار الموضوع اهتمامي، فرددت عليها دون تفكير: «نعم.» أعطيتها رقم هاتفي، وسرعان ما وجدت نفسي عضوة. سلمت عليها ومضيت إلى البيت.

الغيوم ملأت السماء. لعلها ستمطر اليوم!

***

رجعت إلى البيت سريعًا. الشوارع ليست مزدحمة كثيرًا. كنت مرهقة وأشعر بالنعاس. نسمات الهواء الباردة -المتسللة من فتحة صغيرة في شباك السيارة- زادت احتياجي إلى سريري الدافئ. نسيت أمر المجموعة. وصلت البيت وغططت في نوم عميق حتى الثانية بعد الظهر، وقمت بعدها لأجلب نور إلى البيت كما أفعل كل يوم.

***

تناولت الغداء، واستلقيت في سريري. يومها نام نور بعد أن عاد إلى البيت، هذه عادة جديدة اكتسبها. غيث أخبرني مرارًا أنها إشارة جيدة على تحسنه. احتياجه الحسي إلى الحركة قلّ، فأصبح نومه في المساء أفضل، بل إنه يأخذ قيلولة في بعض الأحيان، كما فعل في ذلك اليوم.

في الحقيقة، أراحني ذلك كثيرًا، لم أعد أجوب البيت ذهابًا وإيابًا لأرتب وأنظف الفوضى التي يخلفها وراءه، الأهم من ذلك أنني غير قلقة عليه!

أنا وحدي. شعرت بالملل الشديد. لو جاء هذا اليوم في وقت سابق لذهبت إلى أمي لأقضيه عندها. خالد لن يأتي باكرًا، أخبرني في رسالة قصيرة أن وفدًا فلبينيًا يحل ضيفًا عليه. ما حاجة الفلبينيين للكريستال! أم أنه سيصدّر إليهم السيراميك؟ ربما. المهم أنني وحدي. راودتني فكرة أن آخذ نور وأذهب إلى النادي، لكنني أحسست أنها فكرة غير مناسبة بعد حادثة الجمعة. اقتنعت بكلام مدير النادي يومها، لكن بين القناعة بفكرة وتنفيذها وقت ربما يطول، وقد لا يأتي أبدًا. العالم يضيق علينا!

تذكرت مجموعة الواتس أب. جعلتها صامتة -كما أفعل مع المجموعات كلها- لكي لا تزعجني إشعاراتها. قررت أن أتصفحها لأرى تجارب الآخرين، الأبناء والآباء. فتحتها فوجدت أكثر من ثلاثمئة رسالة جديدة منذ انضمامي في الصباح، مجموعة حيوية! دخلت على المشاركين، عددهم أربعمئة واثنا عشر عضوًا، يا له من عدد كبير!

الكثير من الرسائل تسأل عن الحال، «كيف حالك؟ كيف ابنك؟ ابنتك؟» لا أعلم هل يعرف الأعضاء بعضهم أم هو ذلك السؤال التقليدي الذي نسأله لأي شخص نتعامل معه! غير أنه وسط ذلك الكم الكبير من الأسئلة الشخصية هناك معلومات مفيدة، وتجارب

قيمة خاصها الأعضاء وعرضوها على المجموعة. إحدى الأمهات سألت عن RBT، عرفت مما قرأت أنها شهادة من مؤسسة أمريكية في تعديل السلوك. تفاجأت بكثرة الأمهات الحاصلة عليها، هل هي مهمة إلى هذه الدرجة! لا أظن أنني بحاجة إلى شهادة، هي للعمل فقط، تكفيني المعلومات، ربما أحضر محاضرة أو أشاهد مجموعة من الفيديوهات. إحدى الأمهات قالت إنها أخذت ابنها ذا الثمانية أعوام إلى الولايات المتحدة بغرض التأهيل، وشرحت الفروقات الكبيرة بين المراكز هنا وهناك. تحدثت عن فقدان الاختصاص والترخيص. بحسب كلامها فالكثير من الجامعات هنا لا تقدم برامج في العلاج الوظيفي والنطق رغم أهميتهما، الممارسون هنا خريجو كليات أخرى حاصلون على دورات فيهما فقط، حتى التربية الخاصة تخصص جديد على الجامعات المصرية. حكت بانبهار عن منظمات هناك مسؤولة عن إصدار تراخيص للأخصائيين وتجديدها. وقد أكدت على كلامها أم زارت بريطانيا مع ابنها أيضًا.

قضيت الأسبوع كله أتصفح في المجموعة، أثارت اهتمامي بشكل كبير. المجموعة مكان يتنفس فيه الأهل، كأنها وسيلة من وسائل التكيف مع الضغوطات. عرضتْ بعض الأمهات تحدياتهن مع أبنائهن: وضع الأشياء في الفم وأكلها، النظرة الجانبية بين الحين والآخر، أو القيام بسلوكيات إيذاء النفس أو الآخرين. الكثير من التحديات كان مألوفًا لدي، إما عايشته مع نور، أو رأيته عند زملائه، أو قرأت عنه. ما كان

جديـدًا علي هو كلام إحدى الأمهات عن سـلوكيات جنسـية يقوم بها ابنها ذو الخمسـة عشر عامًا. صدمني كلامها رغم أنه منطقي، وصعّب الأمـر عـلى نفسي أنهـا لم تجد حـلاً حتـى الآن. هل سـيواجه نـور هذه المشكلات لاحقًا!

مـن الأشـياء اللطيفة التـي شـاهدتها فيديوهات لأطفـال مراهقين تصوروا وهم يمارسـون مواهبهم. أحد الأطفـال كان لطيفًا وهو يقوم بتصفيـف شـعر فتـاة صغـيرة باحترافيـة، وآخر بـدا بارعًا وهـو يقطّع الخضـار ويضعه في القـدر ليطبخه. أراح قلبـي كلام أم حكت أن ابنها وجد عملاً في ترتيب الرفوف في أحد المولات الكبيرة.

لأجل نور لا بد لي من الاطلاع على تجارب الآخرين. لكي أختصر وقتي وجهدي أثناء السـير في طريق تأهيله الضبابي الغامض أحتاج مَن يرشدني. ومن يدري ربما أصبح أنا دليلًا لأحدهم في يوم ما!

---

(١١)

استيقظت صباحًا والشمس ملقاة فوقي على السرير. لم يرن المنبه فعرفت أنه الجمعة. أحمل تجاه هذا اليوم أحاسيس متناقضة، بوسعي القول إنني أحبه وأكرهه معًا، مشاعري نحوه كتلك التي يحملها القبطان للبحر، يقود سفينته مستمتعًا، لكنه يبقى متأهبًا لأي طارئ، مما يفسد عليه متعته! أسوأ ما في الجمعة أنني قد أجبر نور على مقابلة الناس، العاقل لا يلقي بعصفور وديع في قفص ضباع جائعة! ولكن كيف أقضي يومي وسط هذا الملل؟ خالد ليس موجودًا، يبيع ويشتري في بلاد بعيدة. لن أزور أمي أو منال إلى أن يستطيعوا إخفاء شفقتهم علينا. النادي ليس خيارًا مناسبًا، على الأقل أيقنت أنني لن آخذ حق ابني فيه إذا حدث حادث ما. فكرت في تجربة جديدة، الذهاب إلى المول، فيه منطقة ملأى بلعب الأطفال، ربما يحبها نور!

قمت على مهلي كمن يقتل الوقت، أعددت الفطور، وأيقظت نور. بدلت ملابسي، ارتديت بيجامة واسعة ظننتها مناسبة للطبيعة الجديدة لحركتي، نور جعلها سريعة! ثم ألبسته. المسافة إلى المول قصيرة، تحتاج إلى خمس دقائق فقط لقطعها، لست أهتم إن كانت طويلة، كاظم كفيل بجعلها ممتعة: «أكرهها، وأشتهي وصلها، وإنني أحب كرهي لها.»

أقف على مدخل المول فأشاهد - بلا معاناة - المصعد أمامي، وعلى

يساري السلم الصاعد إلى الأعلى، أراه مزدحمًا أو خاليًا. أتفحص صف المحـلات المنتظم كتلاميذ في الطابور الصباحـي، وتخطف عيوني ألوان الملابـس، وتصميمات المجوهـرات، حتى الخصومـات لا أبذل مجهودًا في رؤيتهـا. كل هذا كان سـابقًا، الآن تركض عيوني على الأشـياء كمن يشـاهد فيلمًا بسرعـة أعلى من الاعتيادية، فـلا أرى تفاصيل، كأن المول أصبح أمامي مبنًى أثريًا مسِحت معالمه. نصف عقلي عند نور، والنصف الآخر في الطابق! شيء ما خطف نظري، جعلني واقفة متسمرة مكاني، أظن أنني نسـيت نور للحظات. طفـل لم يتجاوز الثالثة ركض من أمام أمـه نحو السـلم الكهربائـي الصاعد، يصـدم الناس في طريقـه كأنه لا يراهـم، أو لا يبـالي بهـم، فيضحك من صدمـة ويمتعض مـن أخرى. كأنني حينها رأيت نور. وصل السلم ووضع يده عليه، والسلم يتحرك من تحت يده، فيحرك هو الآخر يده في الاتجاه الآخر نحو جسـده. كان يضغط على السلم بقوة تليق بعمره، ويبتسم ابتسامة ملائكية، لم يقطعها سـوى أمه التي انتشـلته من أمام السـلم، وصرخت في وجهه: «تعال يا ولـد، لا تجرِ منـي» وجدتُني أذهـب نحوها وأقول لهـا: «الحمد لله على سلامته، عذرًا هل هو مشخص بالتوحد؟» أجابت الأم:

- لا، هو متأخر بالكلام فقط.

- حسنًا، ربنا يعافيه.

ابتسمت الأم ابتسامة مصطنعة وهمت بالذهاب، فقلت لها:

- أيًّـا كانت مشـكلته، فإنـك تعززين سـلوكه حـين تصرخين فيه،

سيفعل السلوك نفسه بعد ذلك من أجل لفت نظرك.

نظرت إلي بما يشبه الاشمئزاز، وردت:

- لا أحب «التربية الإيجابية» نحن مختلفون عنكم يا هانم.

ومضت.

لا أعرف ماذا قصدت بالضبط. من هم؟ ومن نحن؟ هل عنت بكلامها الطبقة الاجتماعية؟ شعرت من طريقتها بذلك. هل يختلف التوحد من طفل غني لآخر فقير! خمنت أن الطفل مصاب بالتوحد. لا أعلم كيف عرفت، أحسست بذلك ولا أجيد وصفه، ربما يكون تقديرًا خاطئًا. ربما لا أعرف إلا التوحد، فأظنه في أي طفل يتصرف بشكل مختلف. على أية حال، فهناك تحدٍ ما يواجهه هذا الطفل.

نحن وهُم! مقارنة صدمتني. في مصر طبقات اجتماعية، وأعراق متعددة، وجنسيات مختلفة، وثقافات متباينة. بالتأكيد تختلف أساليب التربية بينها، لكن التعامل مع التوحد - أو غيره من التحديات - علم لا علاقة له بأي اختلاف، هذا المجتمع يحتاج إلى معرفة ذلك. قررت حينها أن أخطو باتجاه توعيته، لم أعلم كيف أبدأ، ولكن النية الصادقة والعزيمة الحقيقية هما نصف الطريق لعمل أي شيء!

---

(١٢)

مضى أكثر من شـهرعلى ذلك الاجتماع الذي عرفت فيه نور. يومها ذكـروا لي بعـض الأهـداف التـي سـيعمل عـلى تحقيقها خـلال الفترة القادمـة، ومن بعدها وأنـا أتوق لمعرفة ما أتقن منهـا، لكن مصير ذلك الشـوق أن يبقـى مؤجلًا حتـى الاجتماع القادم، يفتَرض أنـه بعد أربعة أشـهر أو خمسـة. صحيح أنني أحتفظ بنسـخة مكتوبة من الأهداف إلا أنني لا أسـتطيع اختبارها، فما زال تعاملي مع نور مقادًا بالعاطفة، حين أراه عاجـزًا عـن إنجاز أية مهمة ولا يسـتطيع إليها تعبيرًا أنسـى كل ما سـمعته في حيـاتي عـن التوحـد، تطـير مـن ذاكـرتي كل المصطلحات، ويتبخر كل ما حفظته عن طرق ملائمة للتعامل معه، فأجد قلبي يجرني مكبلة لأنجز ما يريده. حتى عقلي - حين أستدعيه - يبقى قاصرًا؛ غير مختـص وقليل الخبرة. أقصى ما أسـتطيعه لأعرف أيـن وصل في برنامجه المقـرر لـه هو انتظـار مفاجأة - بلا ميعاد مسـبق - من القـدر، أن يقرر نـور القيـام بعمل واحدة من تلك المهارات أمامـي دون أن أطلب منه. راجعت نسـختي من الأهداف مرات لا أحصيها، والسبب: إذا حصل أحدهـا أمامي أعرف أنه أتقنه مؤخرًا. من كثرة تلك المرات صرت أراه ليالي كثيرة يقوم بأشـياء جديدة. لا حدود للأحلام ولا منطق، شاهدته يعـزف «جوقـة العرسـان» لفاغنر، ويرسـم سـيدة أجمل مـن «أجنيو»

سارجنت، ويحصل على ميدالية ذهبية في أولمبياد بيروت! أما في الحقيقة فقد استجديته سدى أن يفعل أي شيء مما قرأت، وليس نور ممن يُطلب منه فيجيب! إلا أن صغيري قد تعلم أشياء جديدة وحده بالفعل!

في مساء تسللت فيه البرودة وراء الشمس وهي تتوارى - كلص متربص ينتظر انتهاء مناوبة الشرطي - دخلت المطبخ لأنظف ما تراكم فيه من أطباق، سمعت أصواتًا لحركة منتظمة تصدر من غرفة نور، سحبني فضولي إلى هناك لأعرف ماذا يفعل، فاختلست النظر من وراء الباب، وجدته يقفز على البلاط بشكل مرتب. حضرت الجملة المكتوبة فورًا إلى ذهني: «أن يقفز نور بشكل متتابع» لمعت عيوني بالفرحة والدموع، ودخلت مسرعة وحضنته. صحيح أنه لم يكترث لي، بل تخلص من ذراعي الملفوفة حوله ليكمل نشاطه، لكن فرحتي لم تقل. نور يحقق الأهداف!

تكرر هذا النوع من الأمور بشكل متزايد. مرة رأيته جالسًا أمام التلفاز يتمايل مع أغنية للأطفال، ويشير بكف يده إلى رأسه ويده عندما تذكرهما الطفلة التي تغني. أيقنت أن الاستنتاج صحيح، ليس أملًا، ولا حتى صدفة. نور يحقق الأهداف!

من الأشياء الرائعة التي حصلت في ذلك الوقت أن نور كان - من فترة لأخرى - يركز النظر فيّ حين أقف أمامه وأطلب منه شيئًا، أو حين يريد هو شيئًا مني، كأن في عينيه كلمة تقولانها قبل أن يبعدهما عني. في

السـابق كان يتعامل معي كأنني غير مرئية مثل حاجز زجاجي ينظر إلى الأشـياء من خلالـه. اعتادت عيناه – عند الكلام معـي – أن تتجها إلى الأسفل قليلًا، وإذا اضطر إلى رفعهما فيّ تضيقان ويمتعض وجهه، كمن يرفع رأسـه فجأة في شمس الظهيرة. لا قيمة لما كان يحدث سابقًا، المهم هو كيف أصبحت الأمور، نور يتطور!

***

الرحيـل إلى المعـادي، حـان وقتـه! سـيوفر علينا جهد المشـوار من التجمع ووقته. سـيجعل نـور يركز أكثر، وينام أفضل. سـيسرّع وتيرة تحسـنه بلا شـك! أحسسـت أن علي أن أكلم خالد في هذا الموضوع. لم أحمـل في ذهنـي أيـة توقعات حـول ردة فعلـه. لم أعرف هل سـيقبل أم يرفـض؟ يغضـب أم يتعامل بهدوء؟ ماذا سـيقول؟ كلما يأتي دور لخالد في حياة نور يزداد إحساسي بأنني لا أعرفه. خالد، اشتقت لأيام عرفت فيهـا صمتـه وكلامـه! لم تطل حيرتي بانتظـار إجابته، جاء المسـاء ومعه الخبر، دخلت إلى مكتبه، وحيّيته سريعًا، ثم دخلت في الموضوع:

– خالد، نور يتقدم بشكل جيد في المركز، أفكر بالسكن في المعادي، سيوفر علينا كثيرًا، وسيساعده أيضًا.

رفع رأسه من خلف شاشة اللابتوب، لم يخفِ تفاجُؤه:

– السكن في المعادي! هل تعنين الرحيل!

– نعم.

صمـت قليلًا كأنه يفكر في كلمات تجعل رفضه أكثر دبلوماسـية، ثم قال بهدوء:

- أشـغالنا وعلاقاتنا كلها هنا، إذا نقلنا سـكننا إلى المعادي فهذا لن يوفر علينا مشوار التجمع، ربما نقطعه أكثر من مرة في اليوم.

ثم تابع بحدة:

- ندى، المألوف أن يبحث الناس عن مدرسـة قريبة لابنهم، وليس العكس. ابحثي عن مركز في المنطقة. الرحيل غير ممكن.

«الرحيل غير ممكن» لم أجد ما أقوله بعد هذه الجملة القاطعة. قمت مـن مـكاني نحو غرفتي. هل يعـرف خالد تحديات نور عـلى حقيقتها؟ لم أُرد جوابًـا، ففـي الحالتـين سـيضايقني. اكتفيت بالبـكاء، والنظر إلى السماء: يا رب!

أحسسـت أنـني مرهقـة ولا أريـد التفكـير، أخذتني قدمـاي نحو الفراش، نمت. لا أعرف كم مضى من الوقت حين استيقظت منزعجة مـن وقع خطوات تروح وتجيء أمام سريـري. رفعت رأسي، فوجدت نـور يحوم حـولي، افتقدني، لم أضعه في فراشـه، ولم أحضنه كما أفعل كل ليلة، حتى إنني لم أحضّر له العشاء. في حينها لم أفكر في كل هذا، لم أفكر في شيء عـلى الإطـلاق، لا أعرف كيف ولماذا صرخت بـه: ماذا تريد؟ ودفنت رأسي تحت البطانية حتى الصباح.

***

في اليـوم التـالي، عندما أخذت نور من المركـز قالت لي منال إنه كان منزعجًا طوال اليوم، لم يتعاون معهم كعادته، حتى إنه دفع مينا وأسقطه على الأرض. سألتني: «هل نام نور جيدًا أمس؟»

---

(١٣)

الأربعاء ١٢/ أكتوبر/ ٢٠٢٢.

فتحت دفتر التواصل، فوجدت تهنئة بعيد ميلاد نور. حبيبي، أتم اليوم الخامسة من عمره. أتذكر يوم ولادته جيدًا، كنت مستلقية على ظهري أصرخ فوق سرير المستشفى. الوقت عصر، دخلت ممرضتان على عجالة وحقنتا ذلك الشيء الأبيض المثبت في ذراعي، ثم رفعتا فوق نصف جسدي ما يشبه الستارة، شيء غامق عمله أن يحجب عن الأمهات اللحظة التي يرى فيها أطفالهم الدنيا. أملت رأسي نحو اليمين باتجاه الحائط الزجاجي، السماء مليئة بالغيوم. كنت أسمعهم: «أحضري القسطرة البولية، البيتادين قليل زوديه» ثم تلاشى صوتهما شيئًا فشيئًا. على الجانب الآخر من الغرفة خالد يروح ويجيء، وأمي ثابتة ترفع يديها إلى السماء، أراهم ولا يرونني. بدأت قطرات المطر تتهادى وصوت صراخ من خلف الستارة، لا أعرف من سبق الآخر! قالت الممرضة البشوشة: «الحمد لله على السلامة.» ذرفت حينها أول دموع من أجل نور. أعلمتني الإدارة - بعد التبريكات - أن المركز سيقيم حفلة لمواليد أكتوبر في آخر خميس في الشهر، ما يوافق يوم ٢٧، أي بعد أسبوعين تقريبًا.

***

مضت الأيام روتينية، أملأ شنطة نور بالملابس والأطعمة المقرمشة،

وأخـذه في الصبـاح إلى المركز، ثم أعيـده بعد الظهـر إلى البيت. بعد أن أسـتريح، وأقوم بمهام البيت؛ أفتح دفتر التواصل أقرأ ما فعله في ذلك اليوم، وأشـاهد الفيديوهات المرسـلة من الأخصائيين الذين يصورون أجزاء من الجلسات ويرسلونها للأهل. في يوم الثلاثاء، كلمتني ميرڤت ظهـرًا، وأخبرتنـي أن غيث يريد أن يشرح لي شـيئًا ما. وسرعان ما جاء صوته من السماعة:

– مساء الخير. أعلمناك – في آخر اجتماع – بالتحديات الحسية التي يواجهها نور، وضرورة أن يقوم بعمل أنشـطة معينة في أوقات منتظمة لتقليلها، هل تحتاجين لشرح هذا مرة أخرى؟

– مساء النور، أتذكر الكلام، لا أحتاج شرحه.

– قمنا بإعلام المدرسـات بالأنشطة التي سـيقومون بها في الفصل، الآن نـود إعلامك بالأنشـطة التـي نحبذ أن يعملها نـور في البيت، هل أنتِ جاهزة لهذا؟

– لحظات، سأجلب ورقة وقلمًا لأكتب.

– لا داعي لذلك، سـنقوم بإرسال الأنشطة مكتوبة، وملحَقة بدفتر التواصل.

– ممتاز.

– الأنشـطة حركيـة في غالبهـا، سـيفعلها نور لمدة عـشرة دقائق كل ساعتين.

– حسنًا.

– الأنشـطة هي: القفز، والحبو، والوقوف على قدم واحدة، وعمل

نشـاط يحبه وهو واقف على ركبتيه. ينبغي ألا تكون الأنشطة عشوائية، بمعنـى أن يقفز مثلًا من نقطة إلى أخرى معينـة، أو أن ينقل كرات قفزًا وليس مشيًا، وهكذا. هل هذا واضح؟

أجبـت «نعم» وأنا أعلم أنني لن أسـتطيع فرض شروطي على نور، توجيهاتي بالنسبة إليه مثلي؛ غير محسوسة، لكنني سأحاول، سأستمر في المحاولة حتى آخر العمر!

تابع غيث بلطف:

- في وقت التطبيق، إذا ظهر أي استفسـار تسـتطيعين محادثتنا في أي وقت.

- إن شاء الله، شكرًا.

- العفو. أود سؤالكِ: هل اشتريتِ الفرشاة الحسية التي طلبناها؟

- أجل.

- عظيم، أرسـليها غدًا مع نور، سنسـتخدمها معـه، ونصور فيديو نرسله إليكِ عن كيفية وأوقات استخدامها في البيت.

- شكرًا جزيلًا.

- العفو. مع السلامة.

رددت «مع السـلامة.» وتذكرت أنني حضرت الصور التي طلبتها مني منال ولم أرسـلها بعد. قمت ووضعتها هي والفرشاة في شنطة نور حتى لا أنساها في الصباح.

أحببـت طريقـة المركز كثـيرًا، يشركوننـي - بكل شـفافية - في كل

التفاصيـل إلى درجة أحس فيها أنني أحضر مع نور يومه الدراسي كله. ودائمًا متاحون للاستفسارات، والدعم النفسي أيضًا.

***

تتابعت الأيام التالية بطيئة. الروتين والانتظار سهمان في قدم الوقت الجاري، كفيـلان بتعطيله حد أن يكاد الجلوس مكانه فلا يتحرك. وقد كنت أنتظر يوم الخميس لأنني أحسست أن فيه تجربة جديدة أود عيشها. كانـت الحفلة في نهايـة اليوم الموعود، السـاعة الثانيـة. أوصلت نور في الصبـاح، ولم أعـد إلى البيـت كما أفعل كل يوم، بل ذهبـت إلى «لابوار» وجلبـت «كيك» بالفراولة والأناناس، ثم اتجهت إلى صالون التجميل، سرحت شـعري، ثم ذهبت إلى البيت لأرتدي فسـتانًا أصفر يليق بأول احتفـال بعيـد ميـلاد نور في مدرسـته. يومها جـاءت السـاعة الواحدة بسرعة، توجهت نحو المركز، وجلسـت في الاستقبال أنتظر إعلان بدء الاحتفـال. رأيت الأطفال ينزلون إلى الحديقة رفقة مدرسـيهم. لم يرني نور، انطلق كالسهم جاريًا. خرجت وراءهم، أنا وسيدة أخرى، عرفت لاحقًـا أنها جـاءت للاحتفال بابنتهـا «أولغا» ذات الأعـوام العشرة. لم يبـدُ عـلى هيئتها أنهـا قادمة لحضـور حفلة، كانـت ترتدي بنطـال جينز وتيشـيرت، وقـد تركتْ شـعرها الطويل ينسـدل على كتفيهـا بطبيعته، كانـت مرتبـة بلا تكلـف أو مجهود. أخـذ الأطفال يروحـون ويجيئون، يأكلـون الحلويـات وحدهم، أو بمسـاعدة المدرسـات، ويُجبَرون على الجلـوس في حضن إحداهن أو خلف قبضة رقيقة من أحدهم لالتقاط

الصـور. اعتقـدت أن الحفلـة لم تبدأ، لكن اتضـح لي لاحقًا أن هذه هي الحفلة! أزلت المشابك عن شعري، وأطلقت له العنان.

الأطفـال كانـوا سـعداء جـدًا، أكْل وحركـة، مـاذا يحتاجـون أكثر من ذلـك! لفت نظري اثنـان من الأطفال يحـاولان الوصول للحلوى المنتشرة على الطاولة، لكن المدرسـات كانوا يمنعونهما، سـألت مدرسة بجانبـي عـن السـبب، قالـت إنهـما ممنوعان - مـن الطبيـب - من أكل الطعـام الذي يحتوي عـلى الغلوتين. لا أعرف ما هـو الغلوتين ولم أعد أستغرب أي شيء أراه أو أسمعه في عالم التوحد الغامض!

انتظـرت انتهـاء السـاعة المقـررة للحفلـة، وأخـذت نـور المبتهـج وغادرت.

---

(١٤)

استيقظت صباح اليوم التالي عند الحادية عشرة، فتحت عيني فوجدت خالد ما يزال نائمًا بجانبي، في العادة يستيقظ قبل ذلك إذا كان مشغولًا. لم أسمع لنور أي حِس، هل هو نائم؟ ربما. في الفراش دفء لذيذ، أغراني بالسكون فبقيت مكاني أقلّب في هاتفي حوالي نصف ساعة بلا هدف قبل أن أنهض. قمت لتحضير الإفطار، في طريقي فتحت باب غرفة نور لأنظر ماذا يفعل، وجدته مستيقظًا ومستلقيًا على سريره بلا حراك، هل أغواه الدفء أيضًا! تركته في تأملاته، ربما أعجبتني سكينته غير المعتادة التي تتيح لي الإنجاز، فتركته وذهبت لأبدأ إنجاز واجباتي اليومية.

حضّرت إفطارًا بسيطًا، لم أنسَ البطاطس المقلية، إن لم يرها نور على المائدة سأنتظر كارثة! ذهبت لأوقظ رجال البيت، فقام خالد بسلاسة، أما نور فاستمر بالنظر إلى السقف دون أن يتجاوب معي. حينها بدأت أشعر بالقلق، نور يستيقظ قبلي، ولا يكف عن الحركة! تأملته فأحسست أن عيونه ذابلة، أهو إحساس حقيقي؟ أم أن القلق بداخلي يصور لي الأمر بشكل مغلوط؟ ليتني أسأله فيجيب ببساطة! رأسه الدافئ أكد لي أن هناك شيئًا غير طبيعي، بدت حرارته مرتفعة. جلبت ميزان الحرارة لأقيسها: ٣٨ درجة. نور مريض!

جلبت الإفطـار إلى سريره، وحاولـت أن أطعمـه. بالكاد أكل قِطعًا معـدودة مـن البطاطـس. قررنـا أنـا وخالـد الذهـاب بـه إلى الطبيب، وبالفعـل خرجنـا سريعًـا. قـاس الطبيـب حرارتـه، ازدادت، وصلت ٣٨,٢ درجة، بعدها بدأ سـيلًا من الأسـئلة التي لن يقدر على إجابتها أحـد: «هل تؤلمـه بطنه؟ هل يشـعر بالغثيان؟ هل هو مرهـق؟» أعطانا مسـكنًا لـلألم، ومضادًا حيويًا طلب منا اسـتخدامه إذا اسـتمر نور على حالته يومين آخرين، وطلب فحص براز.

***

عدنـا إلى البيت، ما زال نور صامتًا سـاكنًا، لا يتحـرك إلا إذا قلبناه نحن. في عينيه شـكوى، مهموم بها، ومهمـوم بعدم قدرته على شرحها لنا. ضرب غاضبًا بقبضة يده على فخذه، كأنه يقول: «هلا أرحتموني!» وبـدأ بالبـكاء والصراخ، فتقطعـت أنفاسـه، وضرب الطاولة الصغيرة أمامه بقدمه. أمسـكه أبوه حتى هدأ واسـتلقى عـلى الأرض يكاد ينام. حملـه عـلى سريره، وغطى نصفه السـفلي بالبطانية حتى نـام. أما أنا فلم أتوقف عن البكاء.

***

اطمأننـت على نور، حرارته انخفضت بسـبب المسـكن. تركته نائمًا وخرجـت إلى الصالة، كان خالد يحتسي قهوته، جلسـت معه، وطالت جلسـتنا إلى مـا يقارب ثلاث سـاعات. تحدثنا كثـيرًا، لا أذكر آخر مرة جلست فيها مع خالد وحدنا. صحيح أن عمله ونور شغلا جزءًا كبيرًا

من جلسـتنا، لكننـا كنا وحدنا. حكيت له عن تحسـن نـور، وكيف أنه يحب المركز، ويحقق الأهداف بسرعة، شـكيت له من تعبي، وسـهري، وإحباطي. أحسست أنه يشاركني همي حتى لو مستمعًا. لولا استيقاظ نـور بعد العصر لتكلمت معه حتى الصباح! لم ينهض نور من فراشـه، بقي سـاكنًا، لكن ليـس متضايقًا. حضّرت له الفوشـار وجلبته إليه مع ألعاب كثيرة حتى يتسلى. ما زالت الألعاب لا تلفت نظره كثيرًا، يفضل الحركة عليها، لكن حينها لم يكن للحركة سبيل. قلّب الألعاب بضجر، أزال قطـع البـازل ولم يركبهـا، وأفرغ علبة الليغـو وتركها على السرير. أشـعلت التلفـاز لـه، ربما يعجبـه شيء ما فيه، اسـتقررت عـلى قناة من قنوات الأطفال، ورفعت الصوت، ابتسـم، وأخذ ينظر إلى الشاشة من حين لآخر. جلست بجانبه، احتضنته، وشاهدت التلفاز معه.

***

قضى نور أغلب السـبت نائمًا، لكن مسـتقرًا، حرارته جيدة، يسـعل أحيانًـا سـعالًا جافًـا. كنت أشـعر بالملل وحـدي في البيـت، فكرت في مشاهدة فيلم أقطع به الوقت، وهممت بالتنفيذ لولا فكرة لمعت في ذهني فجـأة، فكرة قديمة جلبها عقلي من بين ثناياه ليرميها أمامي. أمسـكت الهاتف، وفتحـت مجموعة «أمهات حقيقيات»، وكتبت: «أنوي إنشـاء مؤسسـة توعويـة لخدمة أهـالي الأطفال المشـخصين بالتوحـد، أحتاج دعمكم، كيف أبدأ؟»

انهالـت الـردود مـن الأعضـاء، أغلبهـا ترحيـب بالفكـرة، ودعاء

بالتوفيق. خلال اليوم، أحصيت عددًا من الردود العملية التي تساعد في تنفيذ المشروع على أرض الواقع:

«أنا صحفية، سأتكفل بتغطية إعلامية في كل المناسبات.»

«أستطيع عمل صفحات على وسائل التواصل الاجتماعي؛ الفيس بوك، والانستغرام، والتيك توك، وتويتر، وإدارتها.»

«أظن أن في وسعنا الإعلان عن حاجتنا لمتطوعين، نستفيد منهم في مجالات كثيرة: حملات خيرية، ترجمة مقالات مهمة، تغطية إعلامية. ربما استطعنا الوصول لأحد المؤثرين إعلاميا وإقناعه بالفكرة لكي يدعمنا».

«فلنخاطب الشركات الكبرى من أجل الدعم المادي، والرعاية.»

«زوجي عقيد في وزارة الداخلية، سأكلمه ربما يعرف أحدًا يسهل علينا أمور التراخيص».

«عزيزتي، تواصلي مع الأخصائيين ليعملوا فيديوهات توعوية.»

جلبت دفترًا فارغًا وقلمًا، ورسمت خطتي القادمة. بدأت التواصل مع صاحبات الردود واحدة واحدة، وكان التفاعل مبهجًا. منذ ذلك اليوم أصبحت المديرة المنتَظرة «لجمعية أمهات التوحد التطوعية».

***

في المساء كان نور أفضل، بدأ يتحرك في البيت، لكن أنفاسه تخونه، وإرهاقه يجبره على السكون سريعًا. لم يستطع التحكم في مثانته، فاضطرني إلى تغيير ملابسه عدة مرات. منذ أن بدأ التدريب في المركز على

خلع الحفاظات وهو في تحسن تدريجي مستمر بهذا الخصوص، يتجاوز الأسبوع دون أن يوسخ ملابسه، وهذا من أكثر الأشياء التي أسعدتني، وأراحتنـي أيضًـا، بدأ يفهـم أن المكان المناسـب للتخلص من فضلات الجسـم هو الحمام. قررت ألا أرسـله إلى المركز في اليوم التالي، الأفضل لـه الراحة يومًا آخر. نظفته، وأدخلته ليسـتحم، ثم ألبسـته. ترددت في قـص أظافره؛ هو في العادة يرفض ويقاوم، لم أعلم هل سـيقوي مرضه مقاومته أم سيضعفها. الحمد لله! مضت الأمور بسلاسة. لم يمضِ أكثر من نصف ساعة حتى نام في فراشه إلى ظهر اليوم التالي.

---

(١٥)

لن أنسى ما حييت تفاصيل ذلك اليوم الذي اجتمعنا فيه ليحكوا لي عن نور. جلست أمام الأخصائيين مثل طالبة يلقّنونها علمًا جديدًا عليها، نظريات لم أظن يومًا أنني سأحاول البحث عنها في حياتي. يومها صوروا لي نورًا جديدًا سألتقيه بعد حوالي ستة أشهر، وهو موعد الاجتماع القادم الذي سيناقشون فيه تطور نور وأهدافه الجديدة. عددت الشهور الستة يومًا يومًا، بل ثانية ثانية!

خلال تلك الفترة - التي بين الاجتماعين - كنت ألاحظ نور طوال الوقت، فأكتشف أمورًا جديدة، غالبًا بالصدفة. لفت نظري أنه ينظر إلى يافطات المحلات، فسألت نفسي: «هل بدأ يستوعب مفهوم الأحرف؟ أم هي مجرد صور ملونة تثير اهتمامه؟» أعجبني الافتراض الأول، ولم أطق صبرًا على انتظار الاجتماع، فقررت التأكد منه بنفسي. مررت على مكتبة قريبة واشتريت كتابًا فيه أنشطة للأطفال، كلها تتعلق بالحروف. بعض الصفحات احتوت على حروف مجوفة تنتظر أن يلونها الطفل، وأخرى احتوت على حروف منقطة ليوصل الطفل بينها، وغيرها احتوت على حروف كاملة يُطلَب من الطفل رسمها. استغللت لحظة اكتفى فيها نور من الحركة وجلس فقدمت له الكتاب. لم يلتفت إليه أبدًا، ففتحته أمامه وبدأت التقليب فيه، نظر إليه تلك النظرة المليئة

بالاهتمام، نفسها التي ينظرها للافتات، ووضع يده على صفحة حين هممت بقلبها، أوقفني، شيء ما خطف بصره، نظر إليه وابتسم، كان حرف A. تركته في نشوته وجلبت له أقلامًا ملونة، أخذ الأصفر وبدأ يلونه، كان عشوائيًا، وقبضته ضعيفة، لكن سعيدًا. في وسط انشغاله قال: «أَ.» ضحكت بصوت عالٍ واحتضنته بقوة ويداه تبحثان عن A أخرى في وسط الكتاب.

***

لم يكن حلمي بإنشاء الجمعية «كلام ليل يمحوه النهار». أخذت خطوات جادة بمساعدة الأمهات الشغوفات - وربما المتعلقات بأي أمل لمساعدة أبنائهم - لتحقيقه. قطعت شوطًا جيدًا في إجراءات الترخيص، وتكلمت مع كثير من الشباب المتحمس الذي قدم خدماته التطوعية، كما استلمت بعض الردود الإيجابية من شركات كبيرة وشخصيات قيادية بخصوص الدعم المادي. اكتملت خطة المشروع في ذهني، ولم يتبقَ إلا القليل ليتجسد على أرض الواقع. كثيرًا ما رأيت نفسي جالسة خلف مكتبي أساعد الأهل بلا مقابل، وتخيلت مشكلات لأطفالهم أحلها لهم. كلنا أمهات متعبات!

أصبح خالد يراني مشغولة كثيرًا بالمكالمات والمحادثات، فيستغرب! مرة سألني:

- ما الذي يشغلك؟

لم تكن حالتي الذهنية - المشغولة بنور والجمعية - مناسبة لكثير

من الأخذ والرد، أو إطالة الكلام. لم أسأله عن مقصده، فقد عرفت ما يرمي إليه. أجبت مباشرة:

- تسـاعدني بعض الأمهات على إنشـاء جمعية خيرية لمساعدة أهالي الأطفال المشخصين بالتوحد، سأقوم بإدارتها.

كعادتي في السنوات الأخيرة لم أتوقع رده، أو كمية الوقت والمجهود اللذين سأبذلهما لإقناعه. أراحني سريعًا برده الإيجابي:

- عظيم!

نظر في عيني مباشرة، وتابع كلامه مبتسماً:

- سأجعل مدير الموارد البشرية يكتب لك شيئًا سيعجبك!

مضى أقل من أسبوعين حتى جاء إلي وأعطاني ملفًا صغيرًا:

- انظري هذا وأعطيني رأيكِ.

فتحته، فوجدت مكتوبًا فيه:

«المهمة»

أن نجعل أيام أهالي الأطفال المشخصين بالتوحد أكثر راحة.

أن نحسّن الفهم العام للتوحد.

أن نساعد الشركات على توفير المزيد من الدعم والخدمات الأفضل والمساحات الصديقة للتوحد.

الرؤية

نرى العالم أكثر تقبلًا ومساعدة للأفراد المشخصين بالتوحد.

القيم.

التعلم المستمر هو نقطة قوتنا.

لا يتقبل الاختلاف إلا الشجاع.

الإنسانية أسمى درجات التحضر.

التوحد لا يحتاج فرصة ولا دعمًا إضافيا، المساواة وحدها تكفي!

صنع القرارات يحتاج إلى معلومات».

لم أعِ الكلمات جيدًا، تاهت عيوني الملأى بالدموع بين المكتوب في الملف وخالد. ألقيت نفسي بين يديه. هل حقًا يشاركني حلمي؟ مضى زمن على شعور كهذا! خالد طيب، لكن بطريقته، أو لنقل: كما يليق بتاجر! التجارة جعلت عطاءه متأنيًا، وقد أصبح هذا يكفيني، تعلمت في الدنيا - بعد عناء - أن الإنسان لا يرسم صورة مثالية لشريكه، ثم ينتظرها، أو يحاسبه على قصورها، بل يتقبله كما شكلته الحياة، المهم أن الخامة طيبة!

***

جاءت تلك المكالمة الساعة الواحدة ظهرًا. عندما يرن هاتفي وأرى اسم المتصل LEM أشعر بالقلق، أرد فورًا حتى لو كان ذلك على حساب غفوة لا أكملها أو واجب منزلي لا أتمه. يومها كانت مكالمة أسعدتني، أحسست بعدها بقشعريرة تسري في جسدي مع صوت ميرفت الدافئ: «مساء الخير مدام ندى. يوم الأربعاء القادم الساعة الثانية عشرة ظهرًا اجتماع لمناقشة التطور الحاصل مع نور. هل هذا موعد مناسب؟» حتى لو لم يكن مناسبًا لجعلته كذلك! بعد يومين سأعرف كل المهارات

الجديـدة التي تعلمها نور الفترة الماضية، وأهدافه القادمة، سـأتخيله بعد ستة شهور أخرى. كنت سعيدة، ومتحمسة، وخائفة!

***

جـاء الأربعـاء دافئًـا، توهجـت الشـمس في منتصـف السـماء بعد أن غضبـت مـن القاهرة اليومـين الفائتـين. أوصلت نـور إلى المركز في الصبـاح، ولم أشـأ الانتظـار هناك، حتى لا أشـتت ذهنـي. الذهاب إلى البيت ثم العودة ليسـت خيارًا مناسـبًا؛ لأنني سـأقضي أكثر من نصف وقت الانتظار في الطريق. صعدت إلى السيارة، وفتحت المسجل. ليس أفضل من كاظم رفيقًا يصفي الذهن ويحسـن المزاج؛ «يدكِ التي حطّت عـلى كتفـي، كحمامـةٍ نزلت لكي تـشرب، عنـدي تسـاوي ألف أمنيةٍ، يا ليتهـا تبقـى ولا تذهـب» قدت بـلا طريق حـوالي نصف سـاعة، ثم قـررت التوقف والنزول بعدمـا أخذتني طرق المعادي إلى شـارع مليء بالمطاعـم التـي تصطف بجانب بعضها. أفطـرت، وشربت القهوة على أنغام فيروز. كل شيء يومها كان جميلًا!

عدت إلى المركز على الميعاد. وجدت فريق الأخصائيين جالسًـا على الطاولة نفسـها التي شهدت الاجتماع الأول. الترتيب نفسه كأنني أنظر إلى صورة قديمة أعرفها، لم يختلف شيء عليّ سـوى الوقت! رحبوا بي، وأعطوني نسـختي مـن ذلك الملف المكتـوب فيه كل ما سـيقولون، ثم بدأو كلامهم. قررت يومها ألا أركز إلا في الحديث الخاص بالأهداف، تجربتـي معهم علمتني أنني سـأفقد تركيزي بمـضي الوقت، فنويت أن أصرفه على ما أهتم به بالمقام الأول.

استهل طارق بمقدمته السريعة. تبعها صوت ناعم قادم من الطرف الآخر من الطاولة، صوت أمل، ميزته من الفيديوهات التي يرسلونها لي أسبوعيًا. أمل هادئة تسيطر على جلستها مع الطفل باحترافية، تعرف ما يحب الطفل وما يكره، تلعب معه فلا يبغضها، وتقوده فيتعلم. قالت إن نور حقق مجموعة جيدة من الأهداف؛ أصبح قادرًا على اتباع تعليمات بسيطة من خطوة واحدة: اقعد وقف، والتعرف على الفوشار، والتعرف على فعل «آكل.»

شكرتها على مجهودها الطيب وسألتها:

- كيف تعرفين أن نور تعرف على فعل آكل.

- في البداية قدمنا له صورة واحدة لشخص يأكل ونحن نقول «آكل» ثم أعطيناه فوشارًا أو بطاطس. بعدها بدأنا بتقديم صورتين، إحداهما لشخص يأكل، والأخرى لآخر يقوم بفعل مختلف، ينام أو يلعب أو يقرأ، ثم نقول «آكل» وننتظره حتى ينظر إلى الصورة الصحيحة لنعززه. أخيرًا بدأنا بتعميم الهدف، فغيرنا صورة الشخص الذي يأكل عدة مرات، استبدلناها بصور لأناس يأكلون أيضًا، وكان يميزها بالنظر بشكل صحيح طوال الوقت.

صمتتْ لحظات. لما رأتني صامتة فارغة من الأسئلة، تابعت:

- أهدافنا القادمة هي الزيادة من الأهداف السابقة التي تحققت؛ اتباع التعليمات البسيطة سيشمل: «افتح الباب، وأعطني مجسم التفاحة.» وسنضيف إلى التعرف على عناصر بيئية كلًا من: الطائرات

والفلفل. أما الأفعال الجديدة التي سيتعرف إليها فستكون: «أشرب، وأنام». بالإضافة إلى هذا، سنستمر بتحقيق الأهداف السابقة التي ذكرناها في اجتماعنا الأول: إدراك معنى بعض الأسئلة الاجتماعية، والتقليد اللفظي لمقاطع صوتية بسيطة، والتقليد الحركي. ستجدينها مكتوبة بالتفصيل في الكتاب الذي بين يديك.

صمتت أمل، ثم سألتني إن كان لدي أية استفسارات أو أهداف أود إضافتها. أجبت بالنفي، وشكرتها. انطلق صوت أجش من جانبها؛ غيث. رأيته في الفيديوهات يلعب مع الأطفال بشكل لا يفهمه إلا هو، قد يمسك الطفل ويلقي به على مرتبة عريضة فينزل مقهقهًا، أو ينططه على كرة كبيرة حتى يكاد يطير. بينه وبين الطفل سر لا يُفشى لأحد. لكن يبدو أن طريقته جذابة للغاية، فالأطفال كلهم يفضلونه على الآخرين. عرفت في السابق أنه يشبع احتياجًا دفينًا عندهم. بدأ كلامه بالقول إن تركيز نور واستجابته للأنشطة الأخرى وتواصله البصري أفضل. أكدت على كلامه وأثنيت عليه، كما أضفت أن نوم نور أصبح أفضل، ما زلت أتذكر كلامه - في الاجتماع الأول - عن علاقة التحديات الحسية بالنوم. ثم ذكر غيث أنه عمل استراحة حسية لنور في الفصل، وشرحها للمدرسات. كما عمل واحدة في البيت، تلك التي وضحها لي في مكالمة هاتفية. وشرح لي أيضًا طريقة استخدام الفرشاة الحسية وأوقاتها. وتابع يذكر الأهداف التي حققها نور بالتفصيل: تعلمَ القفز المتتابع، وصعود أول خطوة من السلم الخشبي المعلق، وبدأ يفهم

كيفية استخدام يديه على الأرض لدفع الأرجوحة وهو مستلقٍ عليها على بطنه. رأيت نور يقفز بشكل متتابع منظم قبل ذلك، وذكرت هذا لغيث، فقال:

- جميل أن نرى نور يحقق الأهداف ويعممها في البيت.

وتابع كلامه:

- سنكمل عملنا على المعالجة الحسية. أهدافنا في الفترة القادمة هي نفسها التي ذكرناها في الاجتماع الأول، موجود منها نسخة في الملف معك. سنضيف إليها: أن يستطيع عصر الإسفنجة المبللة، وأن يفتح المشبك ويثبته على ورقة، وأن يلف غطاء الإناء ليفتحه. أرجو إعلامي بأي سؤال عندك، أو هدف تريدين إدراجه في الخطة.

- أنا سعيدة بما وصل إليه نور، يكفيني حبه الشديد للعلاج الوظيفي. في الحقيقة تطوره يجعلني أثق في المسار الذي تعملون عليه -وإن كنت لا أفهمه- لذلك لن أضيف شيئًا غير الشكر الجزيل.

السماء صافية، والجو عذب، ربما هذا ما ساعدني على الحفاظ على كامل تركيزي رغم انقضاء الثلث الأول من الاجتماع المقرر له أن يكون ساعة واحدة. أمسكت فنجان القهوة الذي أحضروه لي في بداية الاجتماع فوجدته فارغًا، شربته دون أن انتبه. شعرت بالحرج حين علا صوت طارق مخاطبًا ميرفت:

- اطلبي من آمنة أن تحضر فنجانًا آخر.

ثم تحدث ضياء بصوته المتجانس المنغم الذي يشبه ترنيمة سريانية:

- ما أشـد كرهـي للحديث عن الأهـداف في الفـن! إذا طلبت من الطفـل أن يقوم بشيء محدد واضح فأنا حينها أقتل الفنان بداخله. لكن سأحدثك يا سيدتي عمّا يسبق الفن، تمييز الأشكال والألوان واستخدام القلـم ثم الفرشـاة. نـور الآن يعرف الأزرق والأصفـر، لكن لا يجلبها حـين نطلبها منه. صدقيني أنا شـخصيا غير معني بأن يسـتطيع جلبها، لكـن البرامـج الأكاديميـة تجبرني على ذلـك! لاحقًـا سـنعلمه الأحمر والأخضر.

ضيـاء مختلـف عن الآخرين، شـخصية غير مألوفة، ربـما نحتاج إلى الآلاف مـن البشر للعثور على نسـخة واحدة منه. لكـن اختلافه محبب إلى النفـس. يومهـا كان يرتدي قبعة مسـطحة تشـبه قبعـة «دريد لحام» لكنها ملأى بالمربعات الملونة، كأنها لوح ألوان مائية بيد رسـام. طريقته في الكلام تشغلني عن التركيز فيما يقول فأضطر أحيانًا كثيرة إلى إغلاق عيني وأنا مبتسمة حين أسمعه. تابع كلامه:

- يسـتطيع نـور أن يطبـع يده وقدمـه وإصبعه الغارقـين في الألوان على ورقة. إنه يقلدني، وأتمنى ألا يفعل ذلك كثيرًا. التقليد يا سيدتي آفة الفن! فيروس خطير يهدم جسم الإبداع. سنساعده لاحقًا على أن يلون داخل شـكل محدد، وأن يكمل شـكلًا بدائيًا. لكننـي أعدك أن أخرجه عاجلًا أم آجلًا من عباءتي الفنية، لن أتركه حتى أراه بشخصية مستقلة، فنانًا حقيقيًا.

قطعـت كلام ضياء الجميـل بالثناء عليه، خشـيت إن أكمل تأملاته

الفنيـة أن أفقـد ما تبقـى من تركيزي عـلى التفكير في علـم اجتماع الفن وفلسفته بدلًا من الانشغال بابني! ربما لو قابلت ضياء في مناسبة أخرى لما فوتّ فرصة الاستمتاع بكلامه. يبدو لي أن الإنسان كلما نضج انشغل بالخاص عن العام، فأصبح بيته الصغير أهم من العالم الكبير!

تحدثـت كريسـتين بصوتهـا الحاد جـدًا، الذي يشـبه نغمـة من آخر «أوكتـاف» في الأورغ. لم تطـل حديثهـا، أوجزت فقالـت إن نور يميز مفتـاح «مي» على البيانو، ويضغط عليه كثيرًا. ووضحت أنها لا تعرف فيـما إذا كان حبه له متعلقًـا بصوته، أم بالغلاف الأزرق الموضوع عليه، خصوصًـا أنـه بدأ يميـز الأزرق في جلسـات الفن. ثم تنهـدت قبل أن تقول:

– في الحقيقة، أهداف الموسـيقى طويلة المدى، لذلك لا نجد الكثير منها يتحقق بسرعة. نور مسـتمتع جدًا بالجلسات، وهذا يعني أن عنده دافع جيد للتعلم.

أحسسـت بارتباكها، فأثنيت عـلى كلامها سريعًا بعدمـا ظننت أنها احتاجته:

– بالطبع، لا شك أن الأهداف عندكم تحتاج وقتًا طويلًا.

ثم ضحكت قبل أن أتابع:

– نور مسـتمتع بالموسـيقى لدرجة أنه لا يفـوت فرصة – عندي في المطبـخ – يضرب فيهـا الملعقة بالصحون المعدنيـة. هو يحب الأصوات كثيرًا، أتمنى أن يتعلم الموسيقى حتى لو بعد حين. شكرًا لك.

ردت كريستين بابتسامة خفيفة. سألني طارق إذا كنت أرغب في المزيد من القهوة. نبهني أنني أنهيت فنجاني الثاني أيضًا دون أن أشعر، أجبت بالنفي، فأشار بيده نحو منال في إشارة لها أن تبدأ حديثها. وجهت نظري لها بمزيد من التركيز حتى يتسنى لي سماع صوتها المنخفض. أعرف من الفيديوهات المرسَلة لي أسبوعيًا أن صوتها بالكاد يسمع، تتكلم مع الأطفال كأنها عروس تجالس - أول مرة - خاطبًا. برغم خجلها يتجاوب نور معها جيدًا. قالت:

- تعلم نور خلال وجوده معنا أن يتواصل بصريًا لثانيتين، ونعمل على زيادة هذه المدة. وأصبح يدرك معنى يدي ورأسي، القادم في هذا الهدف أن يدرك قدمي وبطني. ويستطيع نظم الخرز الكبير داخل الخيط. وعرف حرف A، نظرًا لسرعة استجابته سنعلمه B وC وD. وتعلّم أن يميز أباه وأمه من الصور، سنزيد هذا ليشمل جدته وخالته وابنة خالته.

رأيت نور يتفاعل بالفعل مع حرف A، كأنه يميزه. وقد أثارت كلمتها « نظرًا لسرعة استجابته» سؤالًا في نفسي طالما فكرت فيه، فوجدتها فرصة مناسبة لأطرحه:

- هل سيدخل نور المدرسة قريبًا؟

تلعثمت منال وتورد وجهها، وانحبس الكلام في فمها. نظرًا لطبيعتها الخجولة لم يقلقني رد فعلها، بل انتظرت أن تلملم أنفاسها وترد، لكن الإجابة جاءت من طارق:

- نتعامل في المركز مع العديد من المدارس من أجل الدمج، وبالطبع

لديها شروطها؛ بعضها خارجة عنا، مثل تقرير طبي من مستشفى حكومي يفيد أنه مناسب للدمج. سنتحدث عن هذه الشروط في وقتها. بالنسبة إلينا هنا فإن أهم شرط هو أن يكون قد حقق أغلب أهداف المستوى الثاني من برنامج VB-MAPP.

- هل هو قريب من هذا المستوى؟

- سيعمل معنا حتى تحقيقه.

- هذه السنة؟

- لا نستطيع التأكيد، ولا يعني أننا ننفي. لكننا سنقدم أفضل ما لدينا. تستطيعين بعد الاجتماع الحصول على نسخة من المستوى الثاني حتى تركزي على الأهداف فيها وتحاولي عملها في البيت. سأخبر ميرقت بذلك. وإن احتجتِ للمزيد من المعلومات تواصلي مع منال بالتلفون في أي وقت.

لم تصدمني الإجابة، توقعت أغلب ما فيها، الأخصائي ذو الخبرة لا يعطي الأهل وقتًا واضحًا يتحقق فيه الهدف حتى وإن كان لديه خطة مبدئية لذلك في نفسه. سرني أن لديهم - على الأقل - آلية واضحة للعمل. استرجعت منال دفة الكلام، وتابعت:

- ستكون الأهداف القادمة إكمال بازل قطعة واحدة، وتمييز القطة والكلب، والمربع والدائرة، والأرقام ١-٣، ومطابقة صورة التفاحة مع مجسمها، واللعب بالمكعبات والسيارة بشكل صحيح، وتقليد حركة

فتـح فمـه، وأخـذ شيء يريده من بين مجموعة أشـياء تقدم لـه. كل هذا موضح في الكتاب معك.

شـارفت السـاعة المقررة للاجتماع عـلى الانتهاء، بـدأ الأخصائيون -الذيـن أنهـوا كلامهـم- بالمغـادرة لأشـغالهم الأخـرى، لم يتبـَق على الطاولة سـوى منـال، ومحمود، وتـالا، وطارق. لحظـات حتى تابعت منال كلامها، ولكن هذه المرة فيما يخص المهارات الاستقلالية. قالت:

- أفضـل مـا حققه نـور في الجانـب الاسـتقلالي هو اسـتغناؤه عن الحفاظات. جدوله الآن كل ساعتين بعد أن بدأ بنصف ساعة. يستطيع السـيطرة على نفسـه في هذا الجـدول إلا إذا كان مريضًا، وهذا اسـتثناء طبعًا. خلال فترة قليلة سنستغني عن الجدول بشكل نهائي.

قاطعتُها سعيدة:

- مهـما فعلـت لا أسـتطيع شـكركم عـلى هـذا الهـدف بالتحديـد. الموضوع كان مرهقًا جدًا بالنسبة إلي. الحمد لله!

- الحمـد لله! أهدافنـا التالية هي نفسـها التي ذكرناها سـابقًا: خلع التيشـيرت والبنطـال والحـذاء، ومسـح أنفـه بالمنديـل، والتعرف على السكين كأداة للقطع.

شكرت منال، فردت علي وهي تأخذ نفسًا طويلًا وتغادر. وسرعان ما تكلم محمود كأنه يسابق الوقت:

- حقـق نـور هدفين: لقـف كرة سـلة، والقفز فـوق حاجز صغير. وسنعمل على الأهداف المذكورة في الكتاب الذي معك.

لم أسـأل عن شيء متعلق بالرياضة، ربما لظني – الذي عرفت خطأه لاحقًـا– أنها تكمل البرنامج التأهيلي وليسـت أساسـية فيه كالأنشـطة الأخـرى، أو ربـما لأن عيـوني توجهـت عـلى ما يفكـر فيه ذهنـي، تالا التالية، والجالسـة مقابلي على الطاولة. شغلني السلوك إلى درجة كبيرة، هو من الأشياء الظاهرة التي أفكر فيها كثيرًا – إلى جانب الكلام – وقد وجدت –لاحقًا– أن كثيرًا مـن الأهل يعطونهما أولوية أيضًا. احتجت وقتًا طويلًا حتى فهمت أن هناك شيئا خفِيًّا أهم منهما، بل ويؤثر عليهما بشـكل مباشر: المعالجة الحسـية السـليمة. كانت تالا شـخصية مجهولة بالنسبة إلي، فلا أراها – كما الآخرين – في الفيديوهات المرسلة إلي أبدًا؛ لأنهـا لا تتواجد في جلسـات لها أوقات محددة، بل تتعامل مع السـلوك وقـت حدوثـه، وهو مـا لا يمكن جدولتـه. جل ما عرفـت عنها – من الاجتـماع الأول – أنها منظمة، وتأخذ بيانات كثـيرة جدًا. أما ما عرفته لاحقًا هو أن أوراقها موجودة في الأقسـام كلها، الأخصائيون يجمعون البيانـات السـلوكية في جلسـاتهم ويزودونها بها، فتقوم هـي بتحليلها، وتنظيمهـا، ووضع خطة للتعامل معها. لم تحتـج تالا الكثير من الوقت حتى بدأت حديثها:

– تأكدنا أن سـلوكيات الإلقاء بالأشـياء، ووضع الملابس في الفم، وسـحب شـعر الأشـخاص، وضرب اليـد في الحائـط، وعـض اليـد، وإصـدار الأصـوات العاليـة، كلها لهـا الوظيفـة نفسـها، وهي جذب الانتبـاه. رغـم أنها بـدأت لوظيفة حسـية ما، إلا أنها لم تعد تشـبع رغبة حسـية، بمعنى أن وظيفتها تحولت من الحسية إلى جذب الانتباه. أخذنا

بيانــات عن كل ســلوك منها، ووضعنــا خطة للتعامل معــه. أمامك في الملـف رسـومات بيانية لتلـك البيانات خلال الشـهور الثلاثة الماضية، نجد فيها أن الســلوكيات كلها انتهت تقريبًا، باسثناء إصدار الأصوات العاليـة، الـذي قـل إلى النصـف، ولكنـه ما يـزال موجودًا، سنسـتعين بالعـلاج الوظيفي الفـترة القادمة لمسـاعدتنا في التعامل معـه. هل هذا واضح إلى الآن؟

- نعم.

- ظهر لدى نور سـلوكان جديـدان. الأول أنه يرفع صوت الهاتف إلى آخر درجة، وكثيرًا ما يطلب الهواتف من الآخرين، وغالبًا لا يكتفي بهاتف واحد، يبحث عن أكثر من ذلك ليسمع الأصوات بأعلى درجة ممكنة.

- في البيت يرفع صوت التلفاز أيضًا.

- حسنًا، لهذا السلوك وظيفة حسية، الاحتياج لسماع أصوات مرتفعة، سـيتعامل غيـث مع هذا السـلوك لو اسـتمر لفترة أطول. بالنسـبة إلينا - في قسـم تحليل السـلوك - سـنذكرك بعدم إعطاء انتباه لهذا السلوك، لكـي لا تتحـول وظيفتـه إلى جذب الانتبـاه. تجنبي اسـتخدام عبارات مثـل: «الصـوت مزعـج، اخفـض الصوت...الـخ» كما سـنعطي نور اهتمامًا مسبقًا حتى لا يبحث عنه بطريقة لا نريدها. هل هذا واضح؟

- نعم.

- السـلوك الآخر هو دفـع الأطفال الآخرين. سـنقول عنه الكلام نفسـه مـن حيـث الوظيفـة والتوصيـات والتحويـل إلى قسـم العلاج

الوظيفي. هل هذا واضح؟

- نعم، لا تحتاجين إلى إعادة الكلام. شكرًا لك.
- العفو.

انتهى الاجتماع. اكتملت المرحلة الثالثة من تأهيل نور، كما أحب أن أسميها. بيني وبين نفسي قسّمت رحلتي الماضية مع نور إلى أربع مراحل، الأولى هي مرحلة لاحظت فيها أن شيئًا غير اعتيادي يحدث معه، من الممكن أن أسميها التَوَهان. والثانية هي التي عرفته فيها، يوم الاجتماع الأول. والثالثة هي ذلك اليوم، الذي سمعت فيه تطوره بالتفصيل. أما الرابعة فهي التي جاءت بعدها بثمانية أشهر. وما زلت لا أعلم إلى الآن كم من المراحل سأعد!

غادرت المركز، أخذت نور معي باكرًا. كان الجو يزداد حرارة، لكنني سعيدة جدًا. فكرت أن أمر على مول قريب رأيته في المعادي لأشتري لنور طائرتين جديدتين، يستحق تلك المكافأة!

---

(١٦)

ذلك اليوم لا يُنسى، أظن أنني سأحتفظ بتفاصيله في ذهني إلى الأبد! كان يومًا باردًا من أيام يناير، الشمس سجينة بين كتل السحب، كلما كادت تطل برأسها تأتي غيمة من مكان ما فتأبى عليها ذلك. البيوت تحس بساكنيها! خلت أن الڤيلا - التي اخترناها مقرًا لنا في التجمع الأول - تشبه العروس لولا الأزرق الذي طغى عليها بدلًا من الأبيض. جهزنا كل ما يلزم للاحتفال، ملأتِ الورود والبالونات المكان، وانتشرت أصناف الحلوى على الطاولات. تفرق الصحافيون ومقدمو البرامج في المكان وسط الأسر السعيدة. مساكين أهل أطفال التوحد، أي أمل بسيط يبهج أرواحهم! في نهاية الحفل جلسنا سبعة من الأمهات على طاولة أعضاء مجلس الإدارة - منهم سارة، والدة تيا - والتقطنا صورة تذكارية، علقناها على الحائط، ما تزال موجودة في مكانها إلى الآن فوق ذلك النص الرائع المكتوب على برواز يشبه البردية الفرعونية، له قصة جميلة سأحكيها لك أو لكِ، إلى الآن لا أعرف جنسك!

فرحتنا بالافتتاح أنستني ما عانيناه قبل افتتاح جمعية أمهات التوحد التطوعية. لم يعد مهمًا أننا أمضينا ستة أشهر على عتبات مكاتب وزارة التضامن حتى أحسست بألفة مع موظفيها! عرفت

أن أم منّـة تعـاني في تجهيز ابنتها للزواج، وأبا جرجس ينتظر رسـالة من سكن محدودي الدخل، ساعدت أم أحمد على إتمام جمعيتها مع جاراتها! رغم الواسـطات الكثيرة لكـن الأمر كان مضنيًا، كل هـذا لم يعد مهماً! المهـم هـو أننا بدأنا نمارس أنشـطتنا الإنسـانية بعد أن تلقينـا دعماً ماديًا مـن مجموعة مـن رجال الأعـمال. وقد أبهرني الشـباب المتطوع بشـغفه وقدراتـه. أنشـأوا موقعًـا إلكترونيا باسـم الجمعية، فيه أبـواب كثيرة: أخبـار، مقالات مترجمة، تبرع، فيديوهات لأخصائيين يتحدثون كل في مجاله، ومقابلات مع الأهالي. وفتحوا حسابًا بنكيًا لاستقبال أموال أهل الخير، واشتغلوا بالتسويق، والعلاقات العامة، والترجمة. فتحوا باسمنا صفحات على وسـائل التواصل المختلفة: الفيسبوك، تويتر، انستجرام، تيك توك، وأداروها بمهنية. لم يمض شـهران على الافتتاح حتى كانت الجمعية حديث أوساط الأهالي والأخصائيين.

***

بعدها بأيام - في ذروة انشـغالي - اتصلت بي أمي. لا أذكر تفاصيل ذلـك اليوم جيدًا، كأنه حلم صحوت منه وبدأت أسـتجمع شـتاته، لا أعـرف إن حصـل صباحًا أم مسـاءً، كل ما أتذكـره أن صوتها جاء عبر الهاتف يعاتبني على غيابي وقلة سـؤالي. لاحقًا ذهبت إليها وحدي بعد أن أنزلت نور في المركز. طلبت منها أن تدعو لي فيما أنا مقبلة عليه.

***

أحببـت عمـلي - إن جـاز لي تسـميته بذلـك - في الجمعيـة كثـيرًا.

ساعدني على الاستمرار فيه أنني أستطيع الذهاب والمغادرة في أي وقت، فلا يؤثر ذلك على واجبي تجاه نور. أكثر ما يسعدني فيه جلسات الدعم النفسي التي أقدمها للأهل. لست أخصائية نفسية، ولا أساس علمي عندي أبني عليه، لكنني أتكلم معهم استنادًا إلى تجربتي كأم، نور علمني الكثير. أعترف أنني حين أكلم الأهل أحدث نفسي، عندما أنصحهم كأنني أوجه النصيحة إليّ. أحكي لهم ما مررت به فأدعم ذاتي الضعيفة، كأن يدي تربت عليّ قبل أن تصلهم، ما أكثر ما يريحني هذا! لم أنجح في كل مرة، لا أعرف لماذا، لكن يريحني أن أقنع نفسي أن السبب ليس قلة علمي أو خبرتي، بل هي نفوس البشر، وخبراتهم، ومعتقداتهم، ليس بالضرورة أن أجلس مع أحدهم فأغير قناعاته، فهذا يحدث نادرًا. أدرك أن هذا أسهل علي من أن ألوم نفسي. برغم إنجازي ونجاحي الجديد - الذي يبدو كجيش يقوده قائد قوي - إلا أنني في البداية، في مرحلة أحس فيها أنني كقطعة زجاج هشة، أهرب فيها من كل ما يضغط علي.

في مرة جاءت إلي أم بما يشبه الشكوى، بكل استياء حكت لي عن زوجها الذي يحاول إدخال ابنه مدرسة داخلية، توسلتْ إلي أن أقنعه بالعدول عن رغبته. ما زال صوتها الحزين يرن في أذني وهي تقول: «أعرف أن سيف متعب، لكن الركض وراءه، وحركته التي تمنعني النوم، وإصلاح ما يفسده في البيت؛ أهون علي من عيشه بعيدًا عني، إذا لم نتحمله نحن، من سيفعل!» اتصلتُ بالأب، وطلبت منه لقاءً

وديًـا، وقـد حـضر بالفعـل، لكنـه لم يغير قـراره. مسـكينة تلـك الأم، حتى الأب نفسـه مسـكين، لا أظنه اختار إبعاد ابنه عنه بسـهولة، لكن للبشر قدرات نفسـية متفاوتة. ربما كان أكثر ما تعلمته من عملي الجديد أن الآباء – أولئك الجبابرة الأقوياء، سند العائلة بأكملها وظهرها المتين المنوط به حماية الأسرة – ليسوا سوى نقطة في بحر التحمل الذي تمتلكه الأمهات حين يتعلق الأمر بالأبناء. الأمومة مرحلة من القوة لا يعرفها أعتى الرجال.

لم تكـن تجـاربي كلهـا عديمة الجـدوى، نجحـت مرات عديـدة. ما أكثر ما دخل إلي أهل مسـتاؤون من المجتمع! الناس وكلامهم، همزهم ولمزهم، وأحيانًا سخريتهم. أظن أن نصف مشاكل الدنيا لم تكن لتوجد لـو ترك الناس فضولهم نحو الآخرين. في كل مرة تكلمت فيها في أحد المواقف تلك استحضرت كلام مدير النادي لي: «هذا الولد أمامه حياة طويلـة، رعايتـه منوطة بك. يحتاج كل وقتـك وأعصابك. لا تضيعيهما في إصلاح الناس حوله، بل وفريهما له» أجل، لن نصلح المجتمع، لسنا أنبيـاء، يكفينـا أن نفهم ونتأقلـم، نتصرف في حدود الظـروف المتاحة، نبحث عن الجميل ونتبعه، ونتجنب القبيح ونعافه.

في إحـدى المرات دخلت إلي سـيدة مثقلة بالماضي الجميل، مرشـدة سياحية اشتكت لي معاملة الناس لابنها. قالت لي:

– الصغـار والكبـار يضايقونـه، هـذا الولـد لـو جاء في زمـان آخر لصنعـوا لـه تمثالًا! هل رأيت تمثـال القزم «سـنب» وزوجته في المتحف

المصري؟ من شـدة احترام النحات له صنع تمثالًا لابنيه ووضعهما تحته - وهو متربـع - كأنهما يغطيـان نقص طوله! جعله رجلًا مهيبًا جالسًـا بجـوار زوجتـه التي تضـع يدًا على كوعـه والأخرى عـلى كتفه، زوجة فخورة بزوجها! أتعلمين أن «سنب» هذا كان كاهنًا جنائزيًا.

بقدر سروري بتلك المعلومة اسـتغربت، بدت الدهشة على ملامحي وأنا أسأل:

- هـل احترم المصريون القدمـاء ذوي الاحتياجات الخاصة إلى هذا الحد؟

أجابت السيدة باستنكار:

- احترموهم! هذه كلمة قليلة. هل تظنين أن سـنب كان استثناءً في ذلـك الزمـان الغابر؟ كلا. ألم تري عازف القيثـارة الضرير على جدران مقابر النبلاء! ألم تسمعي وصايا الحكيم «آمنموبي» لابنه!

لم أبـالِ بما أحسسـته هجومًا عليّ أو تقليلًا مـن معلوماتي، فهذه الأم مجروحة، أَحزنها مـا آل إليه حال المجتمع، تبحث عن نبل أجدادها فلا تجده، معذورة. سألتها باهتمام:

- ماذا أوصى الحكيم ابنه؟

قالت وعيناها تلمعان بالفخر والألم:

«لا تسـخر من أعمى، ولا تهزأ من قزم، ولا تحتقر الرجل الأعرج، ولا تسـد الطريق أمـام العاجـز، ولا تعبس في وجوههم، ولا تتسـبب في معانـاة لرجـل في يـد الله، فالرب هـو خالقهم من طـين وقش، والله

هو مسـويهم، وهو يهدم ويبنـي كل يوم، وهو يصنع ألف تابع حسـب إرادتـه، وهو قدير يحيي ويميت. ما أسـعد الرجل الـذي انتقل للغرب وهو آمن في يد الإله!»

لم أعـرف بـماذا أرد عليهـا. تلعثمت، ذلـك المجتمع الـوردي الذي تعيـش بين مسـلاته وتماثيله لم يعـد موجودًا، آمل مثلهـا أن تعود قيمه، لكـن إلى ذلك الحـين علينا أن نعيش في مجتمعنا المعاصر. صمتّ، لم أقل سوى:

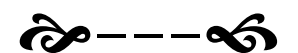
- هل أستطيع كتابة هذا الكلام؟ في الحقيقة أريد أن أضعه في برواز وأعلقه على الحائط.

أجابـت بالقبـول. صمتت بعدها، هي أيضًا لم تجـد ما تقوله. أملت علي الكلام ومضت.

الـكلام عن الجمعية يطـول. قمنا بعمـل سلسـلة فيديوهات كثيرة ومتنوعـة. في البدايـة كنت أشـعر بالكبرياء حين يبـدأ الفيديو بكلامي قبل أن يتبعـه شرح أحد الأخصائيين، أو كلام أحد الصحفيين، لكنني تخليت عن غروري شيئًا فشيئًا. الحياة بلا (أنا) سمَت بروحي، وزادت صبري وهدوئي. نظمنا أيضًا فعاليات عديدة بمساعدة المتطوعين. قبل انطلاق بطولة الجمهورية للسـباحة، أمسكت الميكروفون أمام الجماهير المحتشدة وتحدثت عن التوحد، ثم نزل مجموعة من الأطفال في الماء لمدة خمـس دقائق وقامـوا بعرض مائي سريع. وفي مـرة عزف أحد الأطفال عـلى البيانـو في افتتـاح مستشـفى خـيري. كثيرًا مـا وزعنا طـرودًا على

المحتاجين بمسـاعدة الأطفال، كانوا يحملـون الطرد ويقدمونه للناس. لم ننسَ أن نكتب على الطرد عبارات مثل: «ادعُ لي»، «أنا إنسان مثلك»، «لا أحتاج إلا الحب»، أو بعض الشروح عن مرض التوحد.

الجمعية مكان طيب، سـفارة للجنة على الأرض. الله يحب الطيبين، لهذا نجحنا!



(١٧)

جاءنا رمضان. هذه السنة في مارس. لا أذكر أبدًا أنني عاصرت رمضان في مارس. فكرنا - في الجمعية - أن نوزع طرود الخير على المحتاجين؛ كعادة أهل مصر في الشهر المبارك. ولكي يصبح الموضوع مرتبطًا بالتوحد - غرض الجمعية الأساسي - قرر مجلس الإدارة أن يقوم الأطفال بأنفسهم بتوزيعها. شجّعنا على قرارنا أن الأطفال لديهم تجارب مشابهة - تحت إشرافنا - في هذا الموضوع. أشارت إحدى العضوات علينا أن نوزع الطرود في «الحسين». وبالنقاش والحماس تطور الأمر حتى أصبح إفطارًا إلى جانب التوزيع. وقتها قلت في نفسي: «لماذا لا آخذ نور!» صحيح أنه أصغر سنًا من الأطفال المشاركين، إلا أنني أحببت له أن يجرب تجربة مختلفة لم يألفها. ربما أردت هذه التجربة المختلفة لنفسي؛ ما زلت أتردد بالخروج بنور إلى الناس، أسمع أصواتًا بداخلي تتردد بين الحين والآخر: «سيضايقونه، لن يحسن التصرف».

يومها ذهبنا كلنا في باص كبير. لم آخذ سيارتي، خيل إلي أنني لن أجد مكانًا أوقفها فيه، وقد رأيت أن الأعضاء الذاهبين كلهم فعلوا مثلي. لا أذكر الحسين جيدًا - وأنا بطبعي لا أحتفظ بذاكرة بصرية للأماكن - إلا أنه مرتبط عندي بالأجواء الروحانية. انطلقنا، على خرائط غوغل سنصل بعد خمس وأربعين دقيقة. كان الأطفال هادئون

في البدايـة، ثم بـدأوا بالتململ، وأحيانًا الـصراخ أو البكاء. جلس نور خلفي، رأيته لا يكف عن الالتفات يمينًا ويسارًا، وعيناه ملأى بالقلق. كنت مدركة أن الطريق الجديد على الأطفال يوترهم، لذلك طلبت من السائق أن يسرع قليلًا.

أشـارت السيدة الجالسـة في المقعد خلفي إلى دخلة جانبية عن يمين الطريق:

- هذا هو المدخل.

رد عليها السائق:

- أعرف يا سيدتي، لكن لا نستطيع الوقوف هنا.

وأكمل طريقه يبحث عن مكان يقف فيه وسـط اكتظاظ السـيارات والناس والأبنية القديمة الشـامخة التي صبغها الزمن باللونين الأسـود والبنـي. كان يمشي على مهـل، ويتوقف كثيرًا، وأنـا أتابع المكان كأنني أراه لأول مـرة. أوقفَنا رجل أمن ودود على ناصية وسـأل السـائق عن الأطفـال والرخصة. لفتت نظـري لافتة زرقاء صغـيرة -بجانبه- على شـكل سـهم متجه إلى اليسـار، من وسـط ضباب اللحـم الصاعد من شـواية كبـيرة في مطعم قرأت عليهـا: «متحف نجيب محفـوظ» أكملنا طريقنـا ودخلنا يمينًا في أحد الشـوارع الفرعيـة باحثين عن مكان نقف فيه. وجدناه بصعوبة ونزلنا.

عدنا سـائرين إلى ذلك المكان الذي أشـارت إليه السيدة. أحسست أننـا سـنتوه من بعضنـا - ونحن نمشي غـير منظمين - وسـط الزحام، والأرصفة المكتظة بباعة المناديل والمسـابح، وفرشـات الملابس الممتدة

مـن المحـلات كظلّهـا، وروائـح العطور. خلـت أن النـاس كلها تنظر إلى مجموعـة الأطفـال السـائرة معنا، حتى السـائق الذي وقـف بباصه الصغير ينادي: «رمسـيس» بدا كأنه يراقبنا بعينيه! لم أعد أهتم لنظرات الفضـول والشـفقة مثل السـابق، ألاحظها ولا أبالي بهـا، مواقف قليلة فقط قد تضايقني. نور أصبح سعيدًا، رغم أن المكان جديد عليه إلا أنه انتشـى بالضوضاء والأصوات المنتشرة حوله. لم يكن هذا شـعور أحد الأطفـال الآخريـن الذي وضع يديه على أذنـه، وعلت وجهه علامات الضيـق والحزن. قبل أن يهم بالبكاء، تناولت من شـنطته سـماعة تعزل الأصوات، ووضعتها على أذنيه. لم أسـتطع أن أمنع نفسي من النظر إلى مسجد قديم – على الناحية الأخرى – ملاصق لما يبدو بيتًا قديمًا أيضًا. لا أعرف ما لفت نظري إليه، ربما شكله الأثري القديم، أو الباعة الذين شـغلوا دَوْره الأول ومحيطـه بمكتباتهـم، وبضائعهـم! لم يكـن الوقـت مناسبًا لأشتري من هناك سجادة صلاة، غالبًا سأعود في وقت آخر.

دخلنا ذلـك الزقاق المبلط المؤدي إلى المسـجد، رأيته أمامي بمئذنته الشـاهقة البـارزة عن يمينـه. مررنا من أمـام دورية الشرطة بسلاسـة، لم يوقفنـا أحد. المسـجد يقف مهيبًا أمامنـا، وحولنا الكثـير من الباعة، بضاعتهم كادت تشغلني عن الأطفال، ربما لأن كل ما فيها جديد علي، أشـياء عتيقـة كأنها خارجة من كتـاب تاريخ، ملابس تبـدو من العصر الفاطمي، وإكسسـوارات ليسـت من زمننا، حتى الأحذية شكلها غير مألـوف، طويلة من الأمـام كتلك التي أراها في المسلسـلات التاريخية.

افترشْت بعض البائعات الأرض يعرضن خدماتهن الخاصة بالرسم والحنة، ولم يخُل الممر الضيق من بعض المتسولين. كان السياح كثر، بدا أنهم جاؤوا من كل العالم، رأيت الآسيويين والأوروبيين، السود والبيض، كلهم جاؤوا ليروا الحسين والمعز وخان الخليلي. نظرت في ساعتي، كانت الخامسة والنصف، تبقى أقل من ساعة على أذان المغرب، قررت أن نفطر أولًا، ثم نبدأ التوزيع.

المطاعم ليست بعيدة، مشينا قليلًا، أقل من خمسين مترًا، ورأيناها تصطف عن يسارنا. أمام كل مطعم رجل واحد -على الأقل- يمسك بيده قائمة الطعام وينادي على الناس بالدخول. دخلنا أقربها وتناولنا إفطارنا على صوت الأذان المهيب القادم من المسجد. كان الأطفال هادئين، ربما بسبب الجوع، تعمدنا أن يتناولوا إفطارهم باكرًا حتى يكونوا في هذه اللحظة جالسين بلا تحديات سلوكية تمنعنا من تناول إفطارنا.

أمضينا في المطعم ما يقارب الساعة، ثم قررنا الانطلاق لما جئنا لأجله. لم يكن لدينا خطة واضحة للمسير، قررنا أن نتمشى ونوزع الطرود على البائعين المتجولين. أعطينا كل طفل طردًا، ودخلنا إلى اليسار من أمام المطاعم. أظن أن هذا سوق «خان الخليلي»، زقاق رفيع مليء بالبازارات الضيقة التي تعرض مجسمات فرعونية، وأخرى معاصرة - أدوات موسيقية، تماثيل لأم كلثوم ومحمد صلاح، أطباقًا،

كرات مضيئة - وإكسسوارات، وشالات، وأثواب. في ذلك الزقاق الضيق أزقة تتشعب يمينًا ويسارًا لتفضي إلى الأحياء داخل القاهرة القديمة. كنا نمشي ونوزع الطرود. كلما مشينا أصبح الزقاق معاصرًا أكثر، تقل الأنتيكات فيه وتزداد المشغولات الفضية! أوقَفَنا أحد البائعين بود، قال إنه يعرف التوحد، حفيده مشخص به. صحيح أنه يعرفه من تجربة شخصية، ليس معلومات عامة، لكنني سررت. أعطانا مصحفًا هدية، ما زال على مكتبي إلى الآن. عند نهاية الزقاق دخلنا إلى اليسار، المحلات كلها مقفلة، لافتاتها تقول إنها محلات ذهب، يبدو أن هذا هو سوق الذهب الذي سمعت عنه. عند نهايته، دخلنا مرة أخرى إلى اليسار، انبعثت رائحة الهال قوية إلى أنفي، ثم خفتت. بدا هذا الزقاق مختلفًا عن الأماكن الأخرى، هويته غير واضحة، فيه أماكن تبيع أشياءً كثيرة غير ذات صلة ببعضها: محلات حلويات، وعطارون، ومحلات ملابس، وبازارات، ومحلات عطور. كان صوت القرآن ينطلق من تلك المحلات ويغطي على الأصوات الأخرى.

أنهى الأطفال توزيع الطرود، تمشينا إلى الباص منهكين ومسرورين وصوت أذان العشاء يدوي في آذاننا. ثم انطلقنا كل إلى بيته.

---

(١٨)

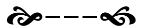
لـولا ما رأيتـه تلك الليلـة ما كنت سـأغير قراري مطلقًـا. ما كنت أنـتَ – أو ربـما أنتِ – سـتوجد في هذه الدنيا. لولاه ما كنت سـأحكي قصتي مع نور! من وسـط جبلين صخريين تقدم نور شـيئًا فشـيئًا حتى استقر جالسًـا بينهما كأنه جبل ثالـث. كان ضخمًا جدًا، مبتسـمًا ومهيبًا ومشرق الوجه. يرتدي سترة زرقاء كلون السماء. امتلأت عيناه بالرفق وهو ينظر إلى شيء أمامه، لم أرني، لكن نظرته تلك لا ينبغي أن تكون إلا لي. لم أعِ بدايـة قوله، فقد كنـت منصتة لصوته، جديد علي، خطفني من التركيـزِ في محتوى كلامه. لمّا أفقت من نشـوة أسـلوبه بدأت أنصت له. قـال: «اصبري يا أمي، الصبر درع متـين، وحصن حصين. لكن الصبر كالخندق حـول القلعة، يحمي فقط دون أن يُعـوَّل عليه بالتقدم، لذلك توكلي، التوكل هو سيفك الذي يشق لك الطرق».

لم أتكلـم. كنت كمريد في حضرة شـيخه، أسـتمع وأندهش وأبكي شـوقًا لشيء لا تعرفه دنيانا الحسـية هذه. صوته الملائكي الحكيم يخترق أذني: «أنجبـي يا أمي، الأطفال زينة الحياة!» اقترب نحوي وما زلت لا أراني، بـدلًا مـن أن يكبر – كالقادم من بعيد – صغر، تلاشـت تدريجيًا الهالة التي ملأت وجهه، وعاد طفلًا كما هو الآن، بجسده وملامحه. مد

يده، بدا أنه أمسك يدي، قال بصوت طفولي: «لا تقلقي يا أمي، إن الله يحبني» واختفى.

استيقظت قبل الفجر بعشر دقائق. ركضت نحو الشباك، وفتحته علّي أرى نور. غادر، أخذ معه الجبلين وضوء النهار ورحل، لم يبقِ سوى صفاء السماء. انتظرته بعدها، لكنه لم يعد حتى الآن!

الفضل في وجودك في بطني الآن منذ أربعة شهور يعود إليه. بفضل كلامه حملت بك. كما كان سبب مجيئك كن سبب حياته. عندما تكبر وتعتمد على نفسك اقرأ كلامي هذا، اعرف تحديات شقيقك وشخصيته، كن عونًا له، أرجوك أن تكرس حياتك له.



(١٩)

مرت الأيام عادية عدا ذلك اليوم. قبله بيومين وردني اتصال – غير معتاد – من المركز. على الجهة الثانية كانت ميرڤت:

– كيف حالك يا مدام ندى، منال تريد التحدث إليك.

شعرت بالقلق، الكلمات سريعة، لكنني قلقة منذ رن الهاتف. سرعان ما اطمأننت عندما سمعت صوت منال ودودًا:

– كيف حالك؟ لن أطيل عليك، سيكون بعد الغد اجتماع لنور في مدرسة ABC، قدّمنا أوراقه هذا العام. يجب أن يجتاز الاجتماع ليتم قبوله.

كنت في مكتبي حينها، وقفت وأنا أسمع كلمات منال. قبضت على يدي بشدة، تلعثمت:

– حسنًا، حسنًا، جيد.

– لا تقلقي، نور سيجتاز الاجتماع بنجاح، أهلّناه لذلك.

شعرت بحرارة دموعي وأنا أرد على ذلك الوعد:

– الحمد لله، رائع.

ثم غصصت بالبكاء. شعرت منال بذلك، حاولت تهدئتي:

– لا تقلقي يا مدام ندى.النتيجة ستظهر يومها.

سكتتْ لحظات قبل أن تكمل:

– لا داعي لحضورك. ولا تحضري شيئًا زيادة، أرسليه إلينا مثل كل

يوم. إلى اللقاء.

- إلى اللقاء.

أنهيت المكالمة، واتصلت على خالد وأنا أبكي:

- خالد، سنحتفل بعد الغد. لا تذهب إلى العمل، أحضر حلوى كثيرة، وادعُ كل الناس إلى بيتنا.

- ماذا حدث!

- نور سيذهب إلى اجتماع المدرسة بعد غد. منال طمأنتني على النتيجة.

- حسنًا، هذا رائع. سنحتفل بلا شك!

لم أنم ليلتها، لأول مرة منذ وقت طويل بسبب الفرحة لا الحزن. بعد يومين لم أذهب إلى الجمعية. أوصلت نور إلى المدرسة، وانتظرته هناك، لم أعد إلى البيت، بقيت في المركز. مرت ثلاث ساعات بطيئة جدًا، لم أفعل شيئًا سوى الجلوس والنظر في ساعة الهاتف، دخلت على صفحة منال على الفيسبوك ورقمها على الواتس أب مئات المرات، لعلها تكون متصلة، مما قد يعني أنها خرجت من الاجتماع فأتصل عليها، لكنها لم تفعل. رنت هي، الهاتف في يدي، رددت سريعًا على المكالمة، انطلق صوتها بفرح: «مبروك!».

مبروك. اجتاز نور المقابلة. السنة القادمة حياة جديدة. بكيت وأنا أتخيله جالسًا في فصله وسط زملائه. غدًا صباحًا سألبسه بدلة المدرسة، وأوصله إلى عالم جديد!

المحتويات



طبع بمطابع دار المعارف